

انيس فاسوا

كتاب اليوم

مصدر من سلسلة



بلاد الله.. فناء الله

سير الليل :: ليلاس ::  
[www.lillas.com/vb3](http://www.lillas.com/vb3)

كتاب اليوم  
يصدر عن مؤسسة أقباط اليوم

رئيس مجلس الإدارة  
محمود أمين العالم

رئيس التحرير  
حسين فهمي

مدير التحرير  
مصطفى طيبة

سكرتير التحرير  
جمال عارف

مطابع الأختار

:: شهر الليل :: ليلاس ::  
[www.liilas.com/vb3](http://www.liilas.com/vb3)

أنيس فضوا

بإراد الله يخلق الله



## إلى أي مكان..

في نهاية الليلة ١٢٥ من ألف ليلة وليلة تحدث شهر زاد  
إلى الملك شهر يار عن رجل تسيال اسمه السندباد التسيال .  
وأنه كان فقيرا ولذلك قرر أن يحمل ملبسه و ينتقل إلى أي  
مكان . . وانتقل من بيته إلى بيت آخر لا يبعد كثيرا عنه . .  
ووضع السبلة التي يحملها على كفه فوق مصطبة . . ثم  
جلس . وأحس أن نسيما عليلًا وشدي جميلًا يخرج من  
فتحة الباب . . فاتجه إلى الباب بانفه وشعر بالسعادة . .  
وإدرك شهر زاد الصباح !

وشهر زاد لم تكمل القصة لأنها - كعادتها - تريد أن يظل  
شهر يار ملهوفا على القصة الجديدة . . وبذلك يطيل عمرها  
ليلة بعد ليلة . .

ولو كنت من شهر يار لاكتفيت بهذا القدر . . فهذا الرجل  
سندباد قد تحرك مسافة قصيرة فاستحق على هذه الحركة  
التواضعة بعض النسيم والعطر . . وهذا يكفي مكافأة على  
أنه انتقل من مكان إلى مكان . . أو فكر في أن يترك الأرض  
التي ضاق بها . . أو البيت الذي مل الإقامة فيه . . إنني  
أرى أن هذه الليلة التي لم تكملها شهر زاد قد كلفت . .  
فالرجل انتقل . وجلس وشم الهواء والرائحة . .  
وهذا يكفي !

وفي كل مرة ينتقل سندباد من مكان إلى مكان يلقي المكافأة  
السخية على ذلك . . مهما كانت مخيطة أو متعبة فهي لذينة  
. . ويبدو أن سندباد لم يكن يتعذب كثيرا ، كأنه يعلم أنه ممثل



وقد أعدت له اجابه مركزة : نعم - وانتار ابي وعمى الى ان استعد . وكنت قد أعدت كل شيء . وفي اليوم التالي اتجهت الى الصين . ولم استطع ان اصارح ابي بانى قد سبت معظم ملابسى .. من شدة الفرحه .. فارتديت ملابس والدى وعمى .. وكنت قد ارتديت ملابسهما قبل ذلك بسنوات : فقد كنت أحلم بما يحلمان به واروى لئسى مفارتهما : لقد عشت حياتهما دون ان يعرفا ذلك .. فلم تبقى الا ملابسهما انصا .. وارديتها .. «

وانت لن تعرف بسهولة تلك الجملة التى اعجبتنى واضحكنتى وعزنتى والتصقت فى نفسى وجعلتها برنامجا لكل رحلة : فالذى اعجبتنى من كل صفحات ماركو بولو .. أنه نسي علابسه .. ولم يحول معه شيئا منها .. فهذا بالضبط ما افعله بحكم العادة ..

ولا انسى يوم سافرت لأول مرة الى ايطاليا .. ووقفت فى المطار اتحدث الى موظفى الجمرى وكان بعضهم من تلامذتى فى الجامعة .. وطال الكلام وطال .. وسالتنى واحد منهم :

واين حقائبك ؟

قلت : لماذا ؟

قال : لكى تبعك بها الى الطائرة ؟

قلت : هذه ؟

وصرخ الرجل : معقول هذا ؟!

قلت : فقط هذه الحقيقية ..

وقد ظل الرجل يحدثنى طويلا ظنا منه ان حقائبى لم تحضر بعد .. ولم تكن غير حقيقية واحسدها بها قميص

فى قصة .. او بطل مسرحية .. فكل مايعمله هو تمثيل فى تمثيل .. وهو من المؤكد محروم من الشعور الحقيقى بكل ماهو جديد .. محروم من الخوف الحقيقى .. والعذاب اذى .. وهو يرى ان كل جديد بلاء .. وان كل مفامرة كارثة .. وعلى الرغم من انه «يمثل» فى ألف ليلة وليلة ، فانه يريد ان يفرغ منها .. تماما كما لو كان مفامرا حقيقيا تعذب كثيرا ويستند الراحة بعد ذلك !

انتى لا احسد سنباد ..

فهو لم يستمتع بالتجربة الاولى .. والمفاجاة الاولى ..

والفرع الذى لاقرار له .. والحيرة التى لا حدود لها .. ولا احسده ايضا .. فقد تمثيت ان يطول كل شيء .. فلا شيء يخيف .. ولم يكن يعذبنى فى رحلاتى الكثيرة الا التعب .. الذى يجعلنى عاجزا عن احتمال الخوف والصدمة والمفاجاة .. ولو كانت لى قوة سنباد وعضلاته وشهيته المفتوحة الى الطعام وقدرته الفذة على ان ينام فى اى مكان وفى اى وقت لشربت مياه المحيط .. لكى أعبره بعد ذلك ماشيا على قدمى .. ولنقلت الجبال ورددت بها الوديان لكى اتمشى على مهلى من دولة الى دولة ..

انه لم يتعذب .. ولم يسعد بالراحة بعد العذاب .. انه لم يعيش ، وانما كان يمثل دورا فى الحياة !

ولم يعجبنى من كل مذكرات « ماركو بولو » التى أملاها فى سجنه فى مدينة جنوة فى نهاية القرن الثالث عشر الا هذه العبارة .. « وعندما عاد ابي وعمى من الصين . كانت اُمى قد ماتت . وكنت وحيدى فى البيت وقد بلغت العشرين . وسألنى ابي : هل تجيء معنا .. وكنت انتظر هذا السؤال ..



في ألمانيا قبل سفري الى السويد .. وفي هذه الحقبة كل  
ملاسي الضرورية .. وهي قليلة جدا .

وذهبت الى مكتب شركة الطيران . ووعدني الموظفون  
بالعثور على الشئ في أسرع وقت . وارسلوا برقيات  
وانظروا ..

وسالوا عن احتياجاتي الضرورية .. وعن محتويات الشئ  
بالضبط . وقلت - وأنا كاذب مع الاسف - : بيجاما صوف  
وملابس داخلية .. ومناديل وجوارب وقوط وصابون  
وامواس حلقة وعلطور ومعجون اسنان ..

وبسرعة فوجئت بكل هذه الاشياء في غرفتي في الفندق  
ومعها باقة ورد واعتذار رقيق من شركة الطيران وتجديد  
للوعد بالعثور على شئتي الضائعة ..

وشعرت بالحجل مرة اخرى لانني تصورت ما الذي سوف  
يحدث عندما يجدون شئتي الصغيرة وليس بها سوى  
بيجاما واحدة .. وقطعة واحدة من كل شئ وتمتيت الا  
يعثروا عليها ابدا ..

وسافرت وعدت .. وكانت الكارثة المروعة :

لقد وجدت الشئ الملعونة في انتظارى .. وانا عندما  
كذبت كنت استر على فضيحة اخرى هي ان ملاسي قليلة  
لاتذكر ! ..

هكذا .. انا اذا سافرت لا احتاج الى اي وقت .. ولا لاي  
استعداد نفسي .. في اية لحظة استطيع ان ازرر الجاكيتة

واقفل باب المكتب وانطلق الى المطار .. اما الملابس فيمكن  
الحصول عليها من الخارج .. او يمكن غسلها في الفندق . .

وينظرون وماكينه حلقة وزجاجة كولونيا وثلاثة كتب .. لكي  
ابقى شهرا في ايطاليا !

ومرة اخرى لكي اؤكد لاصدقائي الذين احسوا انني سوف  
اسافر بعيدا ، حملت حقيبتى الصغيرة معي .. وسالوني :  
اذن انت مسافر الى الاسكندرية .

قلت : نعم ..

قالوا : هذا واضح ..

وهم يقصدون ان الحقبة صغيرة . وان الملابس التي بها  
قليلة .. ولم اكن مسافرا الى الاسكندرية وانما كنت مسافرا  
الى الهند ومنها الى استراليا .. الى اليابان وامريكا .. واكثر  
من ٢٣٥ يوما متواصلة !

فانا اضيق بان يعرف احد موعد سفري فيضطر الى ان  
يرهب نفسه بتوديعي .. كما انني اضيق بالوداع .. واضيق  
بالاستقبال ايضا .. ولا ارى لذلك مبررا .. ولا اعرف  
ما الذي يقال او ما الذي افعله ذهابا وايابا ..

او كائن لا اصدق انني سوف اسافر .. فانا لم اتمكن من  
السفر ، فلا احد قد عرف ذلك .. مع انه لم يحدث مرة  
واحدة ان اعترمت السفر ولم اسافر .. ولكنه خوف قديم  
ثابت ليس له ما يبرره غير ان له تاريخا في طفولتي .. ولم اقلح  
في التخلص من بقايا اوجاع هذه الطفولة بعد .. ولا اظنني  
قادرا على ذلك !

ومرة ضاعت حقيبتى في مطار فرنكفورت ..

ولا اعرف كيف ضاعت .. واعتقد انني نسيته في الطائرة  
.. فقد كانت حقيبة يد صغيرة .. وكان لابد ان اتخلف ليلة



ملابسي التي لا يمكن أن تفارقني .. ثم هذه السيارة أو الطائرة التي ليست أيها سرعة الضوء في الانتقال من شاطئ النيل الى شاطئ البحر :

وفي احدى المرات دخلت الفندق وحجزت غرفة .. ولما سألتني موظف الاستعلامات عن الشنط .. أدركت انني نسيت الشنطة في القاهرة .. أو نسيت ان أعدها .. فقلت له : حالا ..

ونزلت الى الشارع وبحثت عن شنطة ووضعف فيها ملابس اشتريتها وعدت الى الفندق ..

ولم اكد انهي دهشة موظف الاستعلامات حتى جاء شاب يقول لي امامه : حضرتك نسيت بقية العشرة جنيه .. !

وعرف موظف الاستعلامات اني اشتريت الشنطة وما بها .. ومنذ لحظات . ولعله لم يفهم المعنى الحقيقي وراء هذا التصرف .. ولكن المعنى الحقيقي هو اني اذا قررت السفر فمعنى ذلك ان تسافر نفسي .. روي .. عقلي .. اما هذه الاشياء الاخرى فتجيء في الدرجة الثانية وفي معظم الاحيان لانجى !

وأجمل واصدق وصف لي هو ما قاله الاب الفيلسوف نايلاز دي شاردان الذي كان استانا للعلوم في القاهرة في كتابه الذي سجل به رحلاته الى بلاد الصين : انني اولد في هذه الرحلات .. انني انظر وانظر في جشع وشراسة .. هذا هو طعامي .. ثم انني اذا شربت وارتويت وسكرت فليس من الناس وتاريخهم ولا من النباتات والحيوانات .. ولكن من الفياء التي تندفق في أعماقي « .

وكل شيء بعد ذلك بهون . فالهم - دائما - هو السفر .. هو الخروج ..

وليس السفر تفسيرا لمكان المشي أو النوم أو الاكل .. وانما هو تغير للموقف .. تغير للسمع .. جلاء للبصر .. تجديد للرؤية ..

وعندما سافرت الى اوربا لأول مرة لم يتسع وقتي لكي أخبر احدا من الناس .. فقد علمت بالسفر في الصباح .. وفي المساء كنت في المطار .. في الجو .. فوق البحر الابيض المتوسط .. ومن الطائرة رايت مدينة الاسكندرية لأول مرة .. فلم أكن قد رأيتها هكذا كاملة جميلة من قبل ..

وعندما سافرت الى الكونغو قبل لي في التليفون : تسافر ؟ قلت : طبعا .

- ودون أن تعرف الى أين ؟

- لا بهم ..

- اذن الى الكونغو ..

- حالا ..

- اتجه الى المطار ..

واتجهت الى المطار وفي يدي صحيفة « الاخبار » وقد لفقت بها قميصا وجوريا ومنديلا وكتابا .. !

وليس يحدث هذا فقط اذا ما سافرت الى الخارج وانما اذا سافرت الى الاسكندرية .. كل ما أذكره هو هذه السرعة في السفر .. في الانطلاق .. الضيق الوحيد الذي أشعر به هو



كانت أقصر وأطول رحلة ..

وكانت أشدها حرارة ..

وعسقا .. أيضا ! ..

ويقول الاب دى شاردان : انها هذه النفس الفامضة ..  
 انها « انا » .. هذه « الانا » المغامرة .. الباحثة .. الانا التي  
 تريد أن تذهب الى ابعد مكان في الدنيا .. الى اطراف كل شيء  
 .. وكل انسان .. وكل فكرة .. انها هذه الانا التي تريد أن  
 ترى ابعد .. وتسمع اعمق .. اننى اريد أن أعرف بصراحة  
 وبإيجاز ما الذى يكمن في اعماق هذا الاناء الانساني « ..  
 ولما سئل هذا الفيلسوف العظيم عن سر سعادته قال : ان  
 الارض كروية !

فهي تدور ونحن ندور ..

لاهى تهرب من نحت اقدامنا .. ولا نحن نهرب من فوقها  
 .. وحتى عندما نطلق بعيدا عنها قسنظلمشددوين اليها ..  
 وعلى موعد معها .. لكى نسافر من جديد .. نسافر في  
 البر او في البحر او في الهواء .. بلا حقائب .. فالحقائب  
 لاتهم .. فنحن نحمل بين ضلوعنا شيئا اهم من الحقائب ..  
 نحمل الشوق الذى لا يخمد الى كل ما هو جديد : في الارض  
 وفي الناس .. وفيما بين الناس .. في كل ارض .. وبين أى  
 ناس .. فالارض لله .. والناس أيضا .. ولا فرق بين الناس  
 هنا والناس في أى مكان .. فكل الناس يشدون راحة البال  
 ويطلبون من الله أن يعطيهم المعدة لهضموا الطعام ..  
 ويعطيهم الطعام لهضمه المعدة .. ويعطيهم الحرية ليفعلوا  
 بما لديهم ما يريدون .. وأن يعطى الجميع سلاما في النفس  
 وفي الحب وسلاما بين النفوس والعقول ..

فكل ارض لله .. وكل ناس مخلوقات الله ..

وكل رحلة هى فى بلاد الله وبين خلق الله !

أينسار

الكونغو .. بلا لومومبا

أشاهد فيها عملية ابتلاع الطائرات الحربية للذخيرة والجنود  
والقتابل والديناميت وسيارات الجيب .

ولابد أن تكون هناك طائرات أخرى للمدنيين ..

فالمدنيون - متى - لا تقوى أجسادهم التي اعتادت على المقاعد  
الجلدية والفتيل ، أن يتمددوا على الحديد .. إلا أن يراجعوا  
بمقاعدهم الى الوراء ويناموا في عدد .. أو يصطنعوا النوم ..  
حتى تجيء المضيقة وتقول لهم : أصبحوا على خير .. وإذا كنتم في  
حاجة الى أي شيء ، فلا ترددوا ! ..

ومن المألوف أن يتردد الانسان في طلب معظم الاشياء .. لأن  
من حق المضيقة أن تنام هي الاخرى في مثل هذه الساعة من الليل .

وفي هذا الظلام نسبت يدي يد أخرى .. واستسلمت يدي والتمت  
بسرعة حول الذراع الناعمة واتجهت أنا الى صاحبة الذراع وتلفت  
أين طائرني يا مدعير الرب !

فقلت المضيقة الانجليزية : أنت مطلوب في الاستعلامات ..

قلت : أنا بالذات ..

قالت : نعم ..

ولم تناقش طويلًا ونحن وافغان في الظلام .. انما احتضرت  
الطريق وادخرت الكلام لكي أراها في النور أوضح وعلى مهل ..

وفي التور قابلني أحد رجال الجيش وسألني ان كنت أحد  
الصحفيين المسافرين الى الكونغو .. وسألني عن بقية الزملاء ..  
وبسرعة ظهر الزملاء .. وبسرعة سألني أيضا : أين الحكمدار ..

وكانت هذه أول مرة اسمع فيها كلمة « حكمدار » وأرى أن  
الموقف يقتضي أن أكون هذا الحكمدار . ووجدت الاجماع قد اختارني  
حكمدارا . وكلمة حكمدار عند العسكريين معناها : الشخص الذي  
يتلقى الاوامر ويبلغها الى زملائه ويتولى تنفيذها . وعلى الرغم من أن  
عددنا أربعة . فانا من الناحية العسكرية يجب أن يكون لنا حكمدار .  
وانتهزت فرصة تعييني حكمدارا واعندرت . وغضب الضابط لهذه  
الفوضى ورفض أن يبلغنا الاوامر التي لديه ..

ولم نعرف حتى الآن ما عنده الاوامر .. ومستحيل أن نعرفها  
ما دمت قد رفضت هذه الوظيفة ..



## .. وقفزت إلى السوي !

اصططت

بأحد الناس في مطار القاهرة .. وتلهفت على الاعتذار  
له فاصطدمت بواحد آخر .. وعندما صدمني شخص  
ثالث وجدت أن الغرض الذي يربح الانسان هو أن

يقول لنفسه ان كل الناس بهائم ..

ولم يكن هذا الغرض ظالما فمطار القاهرة مظلم والناس اشباح ..  
ونصف هذه الاشباح جنود .. ونصف الكلام باللغة الانجليزية  
ذات الخنافة المعروفة .. ولكن ليس هذا وقت ضبط الأنوف أو  
الأسنة وما أعرف كم من هذه الكلمات التي نسمعها جليزي  
وكم أمر بكاتي ..

فألهم هو أن أجد لي مكانا في الطائرة التي هناك .. والتي لا أراها  
بوضوح ولا أعرف أحدا من ركبها .. ولا أعرف ان كانت على استعداد  
لأن تقبل مسافرا مثل .. أو شحنة بشرية متجهة الى الكونغو ..

وحاولت أن أتجه الى مصدر الضوء في المطار .. وحاولت أن  
أختار شخصا أصطدم به لعل أزعجه علي أن يقبل اعتذاري .. ومع  
هذا الاعتذار أسأله : الى أين نحن مسافرون ؟ وفي أية طائرة ..  
وفجأة أضى جانب من المطار ..

وظهرت الطائرات ضخمة .. لونها أسمر .. كأنها اشتعلت في  
السماء .. وأنقذت في آخر لحظة .. أو كأنها عندما احترقت  
سقطت عليها الامطار بمعجزة .. ولذلك تحتفظ هذه الطائرات  
بلون السحاب ولون الدخان .. وعلامات بيضاء هي امضاء البرق  
على هذه اللوحة القاتمة .. ولاحظت ايضا أن كل الذين التفوا حول  
هذه الطائرة من الجنود المصريين الشبان المسافرين الى الكونغو ..  
وهم جنود المظلات .. ولاحظت أيضا أن هناك سيارات اتجهت الى  
هذه الطائرة .. ثم الى داخل الطائرة .. وكانت هذه أول مرة



وفي آخر لحظة التقى أحد الزملاء بالضابط وقال له : انه في استطاعته أن يكون حكمدارا . وفرح الضابط لهذا الضبط والربط . . . وجاءت التعليمات صريحة تقول : ان أحدا ليس مسئولا عن سفرنا الى الكونغو . . . وانه مهما حدث لنا فنحن وحدنا المسئولون !

وكان هذا القرار مثل سكين قلة قنواوي قد انكسرت وزاانا قبل أن تتحرك الطائرة . . . أو بعبارة أخرى : في ستين داهية . . . وألف نهار أبيض أن البلد قد نخلصت منا جميعا !!

وابتلعت هذه الامنية الغالية ونظرت الى الطائرة وهي تقذف اللهب . . . وتعلقت عيني بالمواد المتفجرة التي امتلأت بها الطائرة . . . ووجدت أن هذه الطائرة هي « الداهية » التي سوف نذهب بها ونذهب اليها . . . وانه من الممكن أن يكون النهار أبيض ألف مرة في لحظات اذا ما انفجرت هذه الطائرة في المطار واستراحت البلاد منا .

وفي هذه اللحظة لم أكن أتصور أنني عبء على البلد لهذه الدرجة . . . ولم أكن أتصور أن الخلاص مني يحتاج الى توزه في الكونغو . . . والى ازسالم قوة من المظلات المصرية وقوات جزائرية وسودانية الى الكونغو والى طائرة ضخمة تسافر في ساعة متأخرة من الليل . . . ولكن يظهر أن الانسان يعبث ويموت دون أن يعرف حجمه الحقيقية عند غيره من الناس !

ونظرت الى الطائرة المليئة بالمتفجرات وعرفت قيمتي الحقيقية . . . وعرفت هذا القبر الطائر . . . هذا الجحيم المنطلق . . .

وبسرعة تخلصت من أهميتي وقيمتي التي احتفظت بهما منذ تركت مكتبي في « أخبار اليوم » حتى جئت الى المطار . . . وأحسست بشيء من الخفة . . . وشيء من الحرية . . . فالمطار أصبح بالنسبة لي منطقة انعدام الوزن والقيمة والاهمية . . . وفي الظلام وبين الجنود وبين الأشباح اتجهت الى إحدى الطائرات . . . ووجدت الجنود قد حجروا أماكنهم . . . ملابسهم صفراء . . . شبان سمر . . . على وجوعهم الارهاق . . . وقد وضع كل واحد منهم بطانية عند قدميه . . . وبروح شابة حلوة اتجهت العيون ناحيتي فيها اشفاق وفيها زمالة . . . وأمسح بعضهم مكانا على أرض الطائرة . . . نعم على أرض الطائرة . . . فالطائرة لها أرض . . . بل كل جدرانها أرض . . . انها عارية تماما . . . جلد على عظم . . . لا تجد بها قطعة خشب واحدة . . . انها طائرة بلا موبيليا . . . انها تذكرنا بأول طائرة ركبتها في حياتي سنة ١٩٤٩ عندما سافرت الى أوروبا فقد كانت مثل الموريات ينقلون فيها الحيوانات

من شرق أفريقيا الى غربها . . . وكنا نجلس على أرضها . . . ونمسك في جبل يمتد من مقدمتها الى ذيلها . . . وعندما كانت تهتز . . . تهتز أيضا كما يهتز جبل الفسيل فوق السطوح . . . ويتساقط منا العرق أيضا . . . وعندما حاول بعضنا أن يعرض على هذه الطائرة قيل لنا ما معناه : على قدر قدرتكم !

وعندما حاول بعضنا في ذلك الوقت أن يكون طريفا مع قائد الطائرة قائلا له : اسمع يا أسطى . . . هذا الاتوبيس نعمة كام . . . كان رد الكابتن : الاتوبيس ليست له نعمة ، ولكن الركاب لهم نعمة على قفاهم !

أما هذه الطائرة الحربية فهي مختلفة تماما . . . فلا توجد بها حبال . . . ولا أخشاب ولا أحد يعرف لها أسطى . . . ولا كمساري . . . ولا رقم . . . ولا اتجاه . . .

ولكن أحد الضباط أشار الى أن أركب السيارة الجيب الموجودة في داخل الطائرة . . . ففي هذه السيارة مقعد من الجلد . . . تصور !

اعتقد من الجلد في داخل سيارة في داخل طائرة . . . انه يسببه كرسيا نزع عن ساليون حلقة ووضع على الرصيف . . . فهو الكرسي الوحيد . . . وهو مطمع كل الجنود الذين تهاكوا على جدران الطائرة .

: باحساسي بأن هذا المقعد نعمة من عند الله . . . اتجهت اليه بنسيء من الامتنان . . . وهذا الامتنان جعل الصدمة التي هزت رأسي بعنف وأنا أدخل السيارة ، نوعا من اللص الرقيق . . . أو كانت هذه الصدمة بسبب الحسد . . . تم حمدت الله عليها . . . فهي أهون بكثير جدا من الامتياز الرسمية التي تلقينها في المطار . . . فالمطلوب ان أروح على مسئوليتي . . . وألا أجيء على مسئوليتي . . . وأن أموت على مسئوليتي . . . فأنا القاتل والقَتيل . . . وأنا كالنار يأكل بعض بعضي .

ولمست بسرعة باب السيارة . . . انه حديد جليد . . . ونسبت الدريكسيون انه شديد البرودة . . . وكذلك كل أجهزة السيارة . . . تلج في تلج . . .

أما ملابسى فهي نصف ملابسى . . . جاكته من تحتها قميص . . . وتحت القميص شبه قميص . . . والقميص مفتوح فأنا أضيق بالكرامة . . . وأضيق بالحزام . . . وأضيق برباط الجزمة وجلدة الساعة . . . ولو كان الامر بيدي لنزعت الزراير . . . وتحولت علابسى كملابس

كم طول المسافة .. ولا كم ساعة قطعها .. ولا ما هو أول مطار ..  
ولا كم يوما سنبقى هناك .. لا شيء .. لا معلومات .. لا فلوس ..  
لا ملابس .. وكل ما عندي من معلومات هو هذا الحوار القصير الذي  
اعتز به وتردده كل حين جميل .. أما هذا الكثير المعنوي فهو :

- مثل سافر الى الكونغو :

- نعم ..

- الآن ..

- غورا ..

- أنا كنت متأكدا من ذلك !

- شكرا !

انتهى الحوار .. ولكنه لم ينته في اذني .. انه يتردد مدويا  
كلاجماء في جلسة برلمانية .. لا قابله الا بالسعادة لهذه الثقة  
الغالية ..

ولكن هذه الثقة الغالية مثل بلوفر اضعه على قلبي .. تحت جلدي  
.. آه لو كان يلتف حول جنبي من ناحية اليمين .. ناحية المصراع  
الفلق ..

.. بعد اكتسفت في هذه اللحظة ان في الجانب الايمن من بطني  
يوجد كتكوت ينفر .. كأنه في بيضة .. ومن الغريب أن الكتاكيت  
لاتخرج من البيض الا في الداء .. ولكن هذا الكتكوت لا يخرج الا  
عندما يكون هناك برد شديد كالذي اقرفص فيه الآن ..

وارفعت الطائرة .. وانخفض رمجرة المحركات قليلا ..  
ولكن الطائرة ضخمة .. راسية في الجو .. لا تهتز .. هكذا قلت  
لنفسى مطمئنا .. ومبدئا ..

وكلما ارتفعت في الجو .. ارتفعت درجة الحرارة .. وارتفعت  
كاننا كنا نحت خط الاستواء .. ثم اقتربنا .. وكان خط الاستواء  
فوق في السماء.

.. تم تحولت الحرارة الشديدة الى عواء ساخن .. هواء من نار  
.. لقد تحول خط الاستواء الى خط نار .. ولاحظت ان الجنود  
الذين حولي .. بناوا يفكون زراير قمصانهم .. وشعرت بالارتياح  
.. فان هذا الهواء الساخن قد انقذني من زهمير السيارة ..

الاحرام .. ولكن في تلك اللحظة تمنيت أن أجد مع الجنود ابرة  
وفتلة لأسد كل هذه الفتحات .. فقد لاحظت أن عواء باردا يهب  
من تحت المقعد .. وتلمست بنظروني فوجدته سليما .. والسبب  
لا أعرفه أحسست أن الهواء البارد قد أخذ يدور حول جسمي ..  
ويتجه باحكام شديد الى أنفي .. وعطست .. وهذا طبيعي ..  
فأنا يكفيني جدا أن ألس شيئا باردا لأصاب بالزكام .. فأنا مزكوم  
دائما ولكني أبحث عن فرصة .. وجاءت الفرصة الحديدية ..  
وعطست .. وانزمت .. وأسدت أنفي .. وأسدت منافذ الطائرة  
.. وأقلل أحد الاشباح بطن الطائرة .. ودارت المحركات ..  
واستسلم كل الحاضرين .. فلا شيء يملكه الانسان في طائرة الا  
أن ينظر الى السقف ..

ونظرنا الى السقف ونفادنا النظر بعضنا الى بعض .. فليس  
هناك ما نراد في رجود الآخرين انما صورة لا نجيبا من القلق والخوف  
وشيء من الدل .. ومقاومة خفيفة يمكن أن تسيبها : الامل أو التوكل  
على الله .. مع شيء تافه اسمه : الثقة بالنفس ..

وبسبب هذا الافلاس المعنوي لا ينظر أحد الى أحد .. ونرى في  
السقف منسعا للجميع ..

ولا أعرف ان كانت محركات الطائرة التي لم أرها قوية جبارة ..  
أو ان محركاتها عادية جدا ولكن صوتها يدري لعدم وجود أية طبقة  
عازلة من الخشب أو من الزجاج أو الفبر .. ان صوت الطائرة رهيب  
.. انها تاكل نفسها .. انها تزمجر .. انها تريد ان تتحدر من  
شيء .. من جاذبية الارض .. من الليل .. من الظلام .. ان  
المحركات نفسها تريد ان تنفلت من الطائرة .. ليتها تفعل ذلك ..  
فرغبتني في اكمال الرحلة التي لم تبدأ قد ضعفت .. وأية محاولة  
منى للخروج من الطائرة الآن مستحيلة .. ولا يوجد أي عذر .. فلا  
أستطيع أن اتظاهر بأنني نسيب شنتطي أو جواز سفرى .. أو ان  
شخصية هامة كانت تنظرني ونسيت ان اودعها .. كل هذه  
الاعذار والاهام قد تجملت في رأسى بسبب البرد .. وكلها قد  
طحنتها المحركات وتحولت الى تراب تطاير والتصق هو أيضا  
بالسقف ..

وتحركت الطائرة كما يتحرك لوري في طريق زراعي غير مرصوف  
.. يبدأ من القاهرة وينتهي في الكونغو في قلب افريقيا ..

ومن الغريب أن الوقت لم يتسع لأعرف الى أين أنا ذهاب .. ولا

يعرفوا لغتها .. واحسنت ان مشاعري هذه نوع من الترف ..  
وان سلامتى نوع من النعالي .. وان مخاوفى طفولية .. ولم  
ابرح مكاني ..

وبعد نصف ساعة استغرقتها في معاتبة نفسى وعقابها . قامت  
الطائرة .. وقد تغير كل شيء فيها .. صوتها .. هواؤها ..  
جوها .. طعمها .. فقد اكتشفت فجأة ان في فمي لبانة . وان  
هذه اللبانة قد التصقت في جدار فمى .. كأنها هي ايضا خائفة ..  
ومع حركة المضغ ارتفعت معنوياتى .. وتغير طعم الدنيا على  
لسانى .. والان اخذ يتغير لونها ايضا .. فلان ارى بوضوح كل  
هؤلاء الجنود بملابسهم الصفراء . وقد تجاوروا ومالوا بعضهم على  
بعض .. وناموا .. أسلحتهم في ايديهم .. وذخيرتهم  
تحت أقدامهم ..

وخرجت من سيارتى . كما يفعل رواد الفضاء ..

واقتربت من أحد الجنود وسألته ان كانت معه كوتشينة فقال  
وكانتى انقذته من بحر من المائل العميق : معنى .. تلعب كونكان !

وبسرعة رددته الى حالة الملل : لا أعرف غير لعبة الكومى !

ورجعت الى مكاني من السيارة .. لا انا اريد ان اعرض عليه ان  
يلعبنى الكونكان .. ولا هو يريد ان يلعب الكومى .. ولا حتى في  
الامكان ان نشارك جميعا في لعبة الشايب .. !

ونظرت الى ناحية اخرى .. كما تنظر سمكة الى سنارة مع  
فارق واحد انتى ابحت عن الذى ينقذنى ايضا من ماء له رائحة  
كريمة .. ووجدت شابا على وجهه ابتسامة مرحة .. وخرجت  
من السيارة وتساندت عليها وعلى جدار الطائرة وقلت له : يبدو  
انك عاجز عن النوم !

وبسرعة عدت الى مكاني فقد كان نائما وهو مفتوح العين .. !

اذن فالطائرة سجن حقيقى .. المسافات كلها قريبة .. لاضوء  
.. لا حركة .. لا حرية .. لا كلام .. مع كل هذا العدد من الناس  
شعرت بوحدة فظيعة .. ومع كل هذه المواد الملتهبة أشعر  
ببرودة فظيعة .. ومع كل هذا الارتفاع اشعر كأن الطائرة تزحف  
تحت الارض .. والليل طويل .. ويبدو انه ليل دائم .. فالطائرة  
بلا نواقذ .. او على الاصح لم اجد لها نافذة .. وحتى اذا وجدتها  
فلا معنى لها ..

ولكن راسى اصطدم بالسيارة عندما خطرت لى فكرة ان هذه  
الحرارة من الممكن ان تؤدي الى انفجار الديناميت والبارود  
والقنابل التى امثلت بها الصناديق التى أمامى وورائى .. ثم ابتلعت  
ريقى وسكت . وكان راسى عندما اصطدم بالسيارة قد سحق هذه  
الفكرة السخيفة التى افزعنى ..

ولاحظت ان الطائرة تهتز .. وانها تهب .. او هكذا نوهب  
.. والتفت حولى لاتأكد من شعورى .. ووجدت الوجود كلبا تؤكد  
ان الذى احسنت به صحيح .. فالطائرة اتجهت الى الهبوط ..  
مع أننا لم نشرك مطار القاهرة الا مدة عشر دقائق ..

وقيل فى المطار ان اجهزة التكييف فى الطائرة قد فسدت . ولابد  
من اصلاحها ..

وجاء هبوط الطائرة يؤكد لنا ان هناك حرصا من جانب احد من  
الناس على ان نعيش او على ان يعيش هو .. فقائد الطائرة الذى  
لم اره لا يريد ان يموت لا هو ولا غيره .. ومن اجل ذلك عاد الى  
الارض ليصلح الجهاز الذى اختل تم يستأنف رحلته الى  
اواسط افريقيا ..

وارتفعت الطائرة .. وكلمما ارتفعت ازدادت درجة الحرارة  
انخفاضا .. تىء عجيب .. كان خط الاستواء المرسوم فوق مصر  
قد تحول سرا الى منطفة قطبية جليدية .. وبدأت انطوى على  
نفسى .. او على الاصح التوى على نفسى .. واضع يدي على بطنى  
.. وعلى جنبى الايمن .. وأتفادى ان يصطدم راسى بدريكسيون  
السيارة التى اتخذت وضعا مخالفا للطائرة .. فالطائرة تتجه  
بمقدمتها الى الجنوب .. الى الكونغو والسيارة تتجه بمقدمتها  
الى الشمال الى القاهرة .. فانا اركب سيارة لاتتحرك ومع ذلك  
تطير بسرعة .. ٥٠٠ كيلو فى الساعة .. وفى درجة حرارة قريبة  
من الصفر ! .

وكانت سعادتى لاحد لها عندما شعرنا جميعا بنفس الاهتزاز  
والدوران .. وهبطت الطائرة الى ارض المطار .. مرة اخرى . لكن  
بتم اصلاح اجهزة التكييف .. وهبطت الطائرة .. وهبطت انا فى  
مقعدى .. وهبط قلبى فى قدمى .. واصبحت حياتى شبيها عند  
قدمى لايساوى ان احرص عليه .. فقد وجدت الى جوارى شبانا  
مواطنين شجعانا ذاهبين الى ارض مجهولة .. يدافعون عن قضية  
الحرية .. وقضية الشعوب التى لا يعرفونها والتى لم يروها ولم

وفتح عيني على ضوء قريب النسيه من ضوء النهار . . أو هو ضوء النهار . . وسمعت نهارات قريبة جدا من : صباح الخير . . صباح النور . .

طلع النهار . . والنمس بدأت اشعتها تصبغ الطائرة بلون النار وقالوا انا امضينا في الجو ثلاث ساعات . . وقالوا خمس ساعات . . فلا معنى للزمن . . ولا معنى لما تقول . . فنحن تسحنة في لورى جوى . . والسائق هو وحده الذى يعرف مصر هذه السحنة . . وان كنا نحفظ بعض المعلومات الاولية . . ومن بين هذه المعلومات اننا في الطريق الى الكونغو احدى المستعمرات البلجيكية والتي تبلغ مساحتها حجم بلجيكا ٨٠ مرة . . والتي عدد سكانها ١٣ مليوناً . . والكونغو في حجم الهند التي يبلغ عدد سكانها ٥٥ مليوناً . . ولذلك يمكن ان يقال ان الكونغو « دولة » خالية من الناس . . ولذلك سوف تكون مفاجأة كبرى ان نجد احدا في اى مكان . . فالرجل الانجليزى الذى اكتشف الكونغو في سنة ١٨٧٥ اندهش جدا عندما صادف في غابة شاسعة اربعة أشخاص . فقد أعلن انه قابل مظاهره من المواطنين !

والكونغو هي اكبر « عزبة » عرفها الانسان . .

فقد كانت الكونغو من المملكات الشخصية لملك بلجيكا . . ومساحة العزبة حوالي مليون ميل اى نصف مساحة القمر . . ومن الغريب ان الذى اكتشف الكونغو ليس بلجيكا . . والذى يملك الكونغو ايضا ليس بلجيكا . . فالذى اكتشفها صحفى بريطانى اسمه جورتون ستانلى . . وملك بلجيكا المانى لم ير هذه البلاد . . ولم يفكر في ان يزورها . . وانما كان مشغولا بامتصاص اموالها . وكان هذا الملك نموذجا لدناءة الانسان ووحشية الرجل الابيض . . فقد ارتكبت في الكونغو مذابح ليس لها نظير في التاريخ . . فقد كان من حق الرجل الابيض ان يقطع ذراع وساق اى رجل من الكونغو لاي سبب . . وكثيرا ما كلس الرجل الابيض عددا كبير من اطراف المواطنين للارهاب . . وظل هذا الارهاب الوحشى زمنا طويلا لا يدري به احد . . ولكن عندما بلغت القارة الاوروبية والعالم المتحضر انباء الملك المتوحش ، فزع الضمير العالمى . . ولم يكن هذا الفرع معناه : الدعوة الى تحرير افريقيا من الاستعمار . . وانما كان معناه فقط ان يكف الملك ورجاله عن هذه القسوة ولكن ان يبقوا في مكانهم . .

فبلجيكا كغيرها من الدول الاستعمارية تملك مساحات شاسعة . . وفرنسا تملك ارضا في حجم فرنسا نفسها ٢٣ مرة وبريطانيا تملك ارضا في حجم بريطانيا ٣٠ مرة . . والبرتغال تملك ارضا في حجم البرتغال ٢٠ مرة . . فالمطلوب هو ان يغسل البيض ايديهم من دماء السود فقط . .

ولكن ان تظل ادمهم في كل مكان . . يستنزفون دماء القارة السوداء التي تتفجر بالنور والتار ايضا . فافريقيا تنتج ٩٨٪ من الماس العالمى و ٢٢٪ من النحاس واليورانيوم و ٦٠٪ من الكاكاو و ٦٠٪ من زيت النخيل . . وعدد سكان افريقيا حوالي ٢٥٠ مليون نسمة وبها ٧٠ لغة وفيها ٩٠ مليون مسلم و ٢٢ مليون مسيحي والبقية من الوثنيين . . وكانت افريقيا المركز الوحيد لتجارة الرقيق التي ابتدأت في سنة ١٥٢٠ عبر المحيط الى امريكا . .

والفيت دوليا في سنة ١٨٠٠ . . ولذلك فحوالى ٢٤٪ من الشعب الامريكى من الزنوج . . والزنوج قد اخلطوا بالبيض في امريكا اللاتينية . .

وقد أرغم الملك ليوبولد على ان ينزل عن عزبة المليون ميل الى الشعب البلجيكى في سنة ١٩٠٨ ومات الملك بعد ذلك بعام واحد . . اما مكتشف الكونغو فقد مات قبل ذلك باربعة سنوات . .

وما تزال الطائرة معلقة في الهواء . . ومن الطبيعى ان تبقى كذلك فلا علاقة بين رغبتى في ان اصل الى الكونغو وبين الطائرة . . فهى في الطريق الى المكان الذى لا اعرفه . . وانا احاول ان اتسلى بشيء . . ولم اجد ما اتسلى به . . لا احد يتحدث اليه . . ولا كتاب ولا ورق . . ولا قلم . . ولا خريطة . . ولا رغبة في ان افكر في اى شيء . . فافكرى اكثر انكماشاً من جسمى . . وعقائى مشغول بمصرانى الاعور الذى تحول الى وخز ابرة . . ثم وخز مسمار بارد . . ثم مسمار محترق . . وتظرت الى احذية الجنود الضخمة . . ووجدت ان هذا الحذاء هو اعظم مخبا للاصابع والقدمين من البرودة الموجهة . . اما حذائى فأقرب الى نسيب الحمام . . واما جواربى فبئر اقرب الى الجوانتيات . . واما انا فأقرب الى الحفاة المراء . . ولا بد اننى ساكون اكثر الجميع خفة عندما نصل الى الكونغو الحارة . . ولكن متى نصل . .

وكان الطائر استمعت الى ما يدور في رأسي .. فاتجهت الى الأرض .. تحاول الهبوط .. وهبطت على أرض الخرطوم .. وفي ساعة مبكرة دافئة ..

ونهدت كأي محام في محكمة النقض وجعلت ذراعي اليسرى ملتصقة بجسمي كأنها تقيض على ملف القضية وذهبت الى الجرسون وقلت : بل أريد الشاي ساخنا .. أريده يغلي كالشورة في الكونغو .. وفي كل أفريقيًا !

وكأي محام لا يتكلم في الموضوع لم يستمع مني الجرسون .. وتركني استمر في الكلام عن نفسي وعن غيري وجاء الشاي الساخن .. واختفيت به في مكان من مطعم المطار .. وصيبت في أعماقي .. في أمعائي .. وسكت السكتكوت في مصراتي الأعور .. وسجلت في تاريخ حياتي : ان هذا هو أجمل وأمتع فنجان شاي شربته في حياتي

وبعد هذا الدفاء في جسمي .. وفي الجو .. وبعد ان امتلأت الدنيا بالشمس .. اكتشفت ان في داخل الطائرة عددا كبيرا من النوافذ .. ومن هذه النوافذ رأيت أفريقيًا ذات الغابات الكثيفة .. الشاسعة .. وبدأت أرى بوضوح نهر النيل وفروعه .. ومسطحات مائية واسعة .. وبعض أصحاب العيون القوية بدأوا يتبارون في معرفة بعض الحيوانات المتوحشة على الأرض .. وتحولت الرحلة الى مباريات في دقة النظر .. ومدى القرب أو البعد من الأرض .. وما الذي يحدث لو سقطت بنا الطائرة .. وأصبحت ضحية لذياب تسمى تسي .. والحقيقة ان هذا الذباب ليس في السودان .. ولكنه في تنزانيا وأنه المسئول عن هلاك ملايين من قطعان الماشية ومئات الألوف من الناس .. فهذه الذبابة تنقل النوم الى الجسم الذي تلسعه .. فينام حتى الموت .

وعلى الرغم من تشابه الأرض الخضراء تحننا فان احدا لم يمل النظر اليها ..

ولم أتمكن من رؤية منابع النيل .. فقد كان لا بد ان أكون على الجانب الآخر من الطائرة .. ولم أستطع ان أتحرك ولا ان أراحم الجنود .. ولا بد أنني سوف أراها عند العودة .. وتمنيت ان تكون عودتنا نهارًا !!

وبعد ان اطمأنت انسي الى أن الطائرة بخير .. والى أننا قرييون من الكونغو .. أسندت رأسي الى يدي .. واستعرت احدي البطانيات وتغطيت ونمت في حراسة ضوئ النهار ومرح هؤلاء الجنود .. وصحوت ، وألصقت خدي بالنافذة .. فالطائرة تهبط ..

وفي مطار الخرطوم كانت الوجود مسريحة مرحبة .. انهم ناصوا وقاموا وشربوا الشاي الذي أحلم به .. وكانت سيقانهم ممدودة طول الليل .. وأذرعهم مسترخية .. وأشعلوا أعواد الكبريت بلا خوف .. واطفاؤها تحت أقدامهم بلا خوف .. وأعدوا لنا هذه الابتسامة السخية اللامعة .. وهذه الابتسامة هي ثمرة النوم والراحة والماء البارد والافطار وعدة اكواب من الشاي والسجائر والمشاركة العاطفية والوطنية لتورة الشعب في الكونغو ضد الاستعمار البلجيكي .. ضد الاستعمار .. وكأنهم يكلفوننا في اول لحظة التقينا بهم في مطار الخرطوم ان نحمل حياتهم الى لومومبا الذي يجاهد هو وعدد قليل من المواطنين ضد تشومبي وغيره من العملاء .. وأنصار لومومبا في بلاده قليلون ولكنهم في العالم كله ألوف الملايين ..

ولا أزعج انني تلقيت هذه المهمة بارتياح .. فقد كنت مهموما بساقي وبطنى .. ومتطلعا الى الدخان الذي يخرج من كوب شاي .. ولكن عندما دخلت الى المطار وجدت عشرات الاكواب .. وكان معدتي قفزت بين اصابعي فمددت يدي الى كوب من الشاي دون ان استأذن من احد .. وفوجئت بان احد القوانين المعروفة كان ضمن الذين نهضوا في الصباح المبكر .. فالقانون اسمه : تقسيم العمل .. فأنا عندما مددت يدي .. امتدت يد احد الجرسونات تمنعني من تقديم فنجان شاي الى نفسي .. فهذه مهمته هو .. انا اطلب وهو يقدم .. فاذا قدمت لنفسي فنجانا من الشاي فقد ألغيت وظيفته واعتديت على قانون تقسيم العمل .. واحترمت نفسي والقانون .. وجاءني الشاي البارد وابتلعتته وانا أغلى من العيظ !

وأحسست ان هذا الفنجان مكافأة هزيلة لا تتناسب مع العذاب الذي لقيته من القاهرة الى الخرطوم .. وقررت ان اتبنى هذه القضية التي فرضت نفسها فرضا : هل من حقى ان اطلب فنجانا آخر من الشاي الساخن جدا حتى اذا كان ذلك اعتداء على قانون الذوق العام وقانون تقسيم العمل وقانون البيع والشراء مع ملاحظة أنني لا أملك مليما واحدا ثم ان هذه التحية التي ترجمتها على أنها تحية الى لومومبا من شعب السودان الا استحق على حملها فنجانا من الشاي الساخن .. ما اعظم الرسالة وما أتته الاجر !

وتقرب من الأرض الخضراء الواسعة السابعة .. ولا يبدل على أن هناك أحدا من الناس .. لا بيوت .. لا طرقات .. بل المطار نفسه لا تدري أين هو .. لا مطار .. وهبطت الطائرة على أرض مستوية .. أرض مغطاة بالعتب الأخضر ..

عده إذن هي الكونغو .. هذا الأخضر الواسع .. عده الغابات العالية الكثيفة المظلمة الصامتة .. والتي تخفى عدا من العيون السوداء التي لا تراها .. والتي تسر على عداد من الأقدام وعلى عداد لا تعرف مده من أكلة لحوم الإنسان .. وغير ذلك من الأوهام والمخاوف التي تشعبها الغابة في كل من ينظر إليها ..

وأذكر أنني عندما دخلت مطار الخرطوم لقيت أحد كبار الضباط .. وقد صافحني بحرارة من يعرفه .. والحقيقة أن أحدنا لا يعرف الآخر .. ولكن المعنى العام معروف لدى كل منا .. فنحن ضمن القوات المصرية المسافرة إلى الكونغو .. وهذا يكفي .. وانهزت عده الإبتسامة لأفتح معه حوارا : كانت الرحلة صعبة ..

وتم يرد وأنا أزداد عدد الأسنان البيضاء اللامعة في فمه .. وعدت أقول له : ولكن زينا كبير .. فقد عدنا إلى القاهرة مرتين .. في المرة الأولى ..

فقال : بلغنى ذلك .. والحمد لله على السلامة ..

وفلت متشجعا وأنا أريد أن أعرف : كم عدد الساعات التي بقيت حتى تصل إلى الكونغو ؟

وضحك بالفعل : لا أحد يعرف .. فالكونغو واسعة جدا .. ووجهة هذه الطائرة سر عسكرية .. وإذا هبطت الطائرة في إحدى العصابات ووجدت الذين يتفرجون عليكم من الإقزام فمعنى ذلك أنكم في شمال الكونغو .. أما إذا كانوا عاديين فأنتم في أي مكان آخر ..

ومعنى ذلك أنني يجب أن أنتظر أبناء الغابة ليخرجوا .. واحسب أطوالهم لأعرف أين نحن من هذه البلاد الهائلة .. ولم يظهر أحد .. لا أحد .. لا ناس .. لا بيوت .. لا حيوانات .. لا حشرات .. لا فراشات .. فالصمت دافئ .. والرطوبة كثيفة .. وكل شيء ماض في حياته .. ونحن فقط دخلاء على ملايين الملايين من الأعشاب والأشجار ..

ولم يكن عند الجنود وقت للتأمل .. فعندهم مهمة عاجلة .. ولذلك تطايرت البساطين والصناديق .. وأديرت محركات السيارات الجيب وهبطت من الطائرة .. والتفت حولها الجنود .. وركبوا السيارات .. واستعدوا واصطفوا .. وصدرت إليهم أوامر وتحركوا واهتفوا ..

وفي مقدمة الطائرة رأيت قائدها الأمريكي .. وفلت مني عده العبارة : يا ابن الإيه ؟

فقد كان يمسك سندوتشا فخما فخما وسيجارا كوبا محترما وزجاجة بيرة .. وكأنه أحد المسافرين بالدرجة الأولى في طائرة مدنية .. فلا أثر لتعب أو الأرق على وجهه .. ولم تطاوعني نفسي أن أسأله عن موعد العودة .. فقد أحسست أنه استغفلنا : ركب هو في الجانب الخلفي وتركنا نحن في الجانب العسكري من الطائرة .. بلا كوب ماء .. ولا كوب شاي .. ولا كلمة .. وظل يفعل بنا ما يشاء ..

وجاء أحد ضباط الأمم المتحدة وطلب منا أن نركب طائرة عسكرية صغيرة تنقلنا إلى مدينة كوكياتفيل .. وعمد على أول مدينة في الكونغو نذهب إليها .. أما هذه الأرض التي هبطنا إليها فليس لها اسم .. وإنما لها رقم فقط ..

وكانت الطائرة الصغيرة مريحة ..

وكان قائدها بلجيكي .. وهذا مجرد استنتاج .. لأنه لا يمرر للغضب الشديد على وجهه .. ولا يمرر للغيظ الذي ينظر به إلينا .. ولا لتجاهله الأسئلة الكثيرة التي نوجهها إليه إلا أن يكون بلجيكي !

وكانه اختصر المسافة المطلوبة فانزلنا بسرعة في أرض ملساء خضراء .. وتركنا نلقي بأنفسنا من الطائرة .. وظل هو في مكانه من الطائرة .. ولا كلمة .. ولا إشارة .. ولا نظرة .. ونزلنا في أرض لا نعرف فيها أحدا .. ولا نعرفنا فيها أحد ..

وركبنا سيارة من سيارات الأمم المتحدة ومعنا أحد الضباط المصريين الذي سبقنا إلى هذه المنطقة .. ووجدنا أمنا مطعما .. فدخلنا .. ومقاعد فجلسنا .. وعلبا محفوظة فامتدت أيدينا .. وفتحنا العلب .. وبدانا نأكل ..

والمطعم مهجور .. ليس به موظفون .. ويبدو أنه كان مملوكا

لاحد البلجيكين الذين عاينوا . وواضح جدا أن المكان مهجور .  
وكل ضابط أو جندي يمسح بمنديله مقعده . ويمد يده الى أكداش  
العلب ويأخذ ما يريد ويلقى بالعلب الفارغة في أي مكان . ولذلك  
فالمطعم مليء بالفارغ والمديان . . .

وكانت العلبه الأولى : نونه . . وكانت العلبه الثانيه :  
فاصوليا . . والعلبه الثالثه : فاصوليا . . والعلبه الرابعه :  
أناناسي . . والعلبه الخامسه : حيزا . . ولا توجد أطباق أو شوك  
أو سكاكين أو أكواب . . وامتدت أيدينا الى كل شيء . . واكلنا  
كل شيء . . ولا طعام لاي شيء . . فليس هذا وقت تدوق الطعام .  
وانما هو وقت ملء المعدة بالطعام . . وبعد لحظات اكتشفت أن  
أصعب شيء في هذه البلاد التي لا تتوقف فيها الامطار هو الحصول  
على كوب ماء . .

ووجدت أن المواطنين وعم يسكلمون الفرنسية التي نبتت على  
الضحك . . فهم يغيرون بعض الحروف أثناء النطق . . فحرف  
" الجيم " يصبح حرف ذال . . وحرف الالف يختفي . . او يصبح  
حرف باء . . وحرف الميم يصبح حرف نون . . وكل هذه التغييرات  
مقبوله على العين والراس بشرط أن تؤدي في النهاية الى كوب ماء !  
ولم نؤد الى كوب ماء . . وانما أسفرت عن وعد بتحقيق هذه  
الامنيه في أقرب فرصة !

والذي ننووه عادة من هذه اللخبه في تناول هذه الاطعمه  
المحفوظه الباردة قد حدث . . فهذا الذي أشعر به هو من المؤكد  
نوع من الغص الشديد . . والبحث عن المسكنات أصعب من البحر  
عن الماء . . والبحث عن طبيب أصعب من البحث عن رجل بلجيكي  
في الكونغو !

وحول المطعم ظهر عدد كبير من رجال الامم المتحده . . وكلهم  
من الجزائريين الذين وضعوا علامات الامم المتحده . . واقتربت  
وسلمت . وطلبت الماء . وجاء الماء . وطلبت الدواء . ووجدت الطبيب  
والدواء . وكان الطبيب دنمركيا . وعرفته بنفسى وبزملائي .  
وضحك الطبيب وقال . احترسوا من الامراض الخبيثه !  
ولم يضحك عندما قالها . وانما كان جادا . ولذلك استوضحته .  
وكان رده : انه يوجد امراض جلديه مستحيله العلاج !

وعرفت فيما بعد أن عبارته هذه أخبت من الامراض الخبيثه !

فقد كان يريد منا الا نصاح أبناء الكونغو اينما وجدناهم . .  
المواطنين العاديين والموظفين . . فمن عادة اهل الكونغو أن يمدوا  
أيديهم بالسلام . فقد كان من المحرم عليهم أن يصابوا البلجيكى  
الابيض . . ثم ان هذا البلجيكى قد عاش عشرات السنين وهو  
يقطع أيدي أبناء الكونغو لأنه الاسباب . . فاذا نحن ترفنا عن  
مصافحتهم . ونحن افريقيون مثلهم . كنا أسوأ من البلجيكين  
المستعمرين !

ولذلك لم اكد ارى واحدا من أبناء الكونغو حتى تقدمت اليه . .  
دون أن ارى الومح الطويل الذي ألصقه بجسمه ودون أن لاحظ  
أنه عريان تماما . ومددت يدي وقلت له ما معناه : ازيك يا أخ . .  
ولا اعرف ان كانت العبارة التي قد صدرت منه معناها : العيب  
أخوه . . أو كان معناها : لقد مضى وقت طويل لم يصابحنى رحن  
أبيض ! . .

وان كنت انتك في ان لوتى كان ابيض في ذلك اليوم . . فالسهر  
الطويل . . والارهاق الشديد . . والجوع والاضطراب النفسى والمقص  
قد جعلنى أصفر اللون . . ولا بد أن أعصابى كانت مشدوده لدرجة  
أنها سحبت عيني من وجهى فادخلتهما بضعة مليمترات الى الوراء .  
ولا بد أن شعري قد ازداد كرمسة . . وأصبح أقرب الى شعر  
الزنوج . .

على كل حال هذه صورتي كما أراها أنا . اما صورتي كما يراها  
هذا الأخ الزنجي فلا أحد يعرف عداها . . ولكن ميمها كانت صورتي  
في عينيه . فانها لم تصعه من أن يمد يده . . ويضغط على أصابعى  
بقوة . . كأنه يؤكد لنفسه أن الذى يصكه لحم آدمى ابيض حقيقى . .  
وأنه ليس حالما . وان كنت أنا على يقين من أنه حالم فعيناه أيضا  
يريق غير محدد . وحسقتا العينين جامدتان . انه يشبهنى عندما  
ذهبت للقاء ملكة العجر في شمال ايطاليا وكتب من العجيبين بنا .  
وادخلتنى حاشيتها في غرفة من داخل غرفة . . لاجدها أمامى عارية  
تماما . . وفي دورة المياه !

ويبدو ان مصافحتى لهذا الزنجي قد شجعت زوجته او ابنته  
على أن تمد يدها . . ومن وراء الاشجار ظهر كثيرون . . وامتدت  
أيديهم بالسلام والتحية . .

وعندما عدت الى السيارة قال لى الطبيب الدنمركى : انك شخصيه

محبوبة هنا .. وعمرت في أعماقي على أسباعة مديمة فاطلفيا .  
ثم عاد يقول لي : وأنت محفوظ أيضا .

وعرفت أنني محفوظ حقيقته .. فلو نزلت طائرتنا في منطقة  
أخرى إلى الشمال قليلا .. لكننت بطلا لمأساة حقيقية . فمن عادة  
القبائل هناك أنهم إذا اطمأنوا إلى شخص أحبوه . وإذا أحبوه  
يصفوا على وجهه .. بالحمد لله !

ولا أذكر من الذي سألني ما معنى أحسن أغاني أم كلثوم لديك  
فقلت : النوم ..

فقد كنت أحلم بالنوم .. إذ أحسب أن جسمي أغنى  
العصيان .. لا شيء يطاوعني .. أحاول فتح عيني فلا أقوى ..  
أحاول مد ساقي فلا أستطيع .. أحاول أن أقعد فتوَجع ..  
أحاول أن أقف فتدوج .. أحاول أن أفتح فمي فيخرج الكلام  
طلبقا غير معقول - ومعنى كلمة " معقول " هو بالضبط المعنى  
العربي القديم الذي قدمه رجال البادية : عقل البعير أي ربطه  
بحبل .. والكلام غير المعقول أي غير المربوط بحبل من المنطق  
والفهم !

ودخلت باب السيارة الجيب في أحد العصور .. الفصر له  
حديقة .. والفصر من دور واحد .. وعرفنا بعد لحظات أن المكان  
مهجور .. والتراب الكيف على المقاعد والمناضد والنوافذ يؤكد  
ذلك .. وأوراق الاتسجار التي نطت الطرقات لم تمسسها يد  
ولا قدم منذ سنوات طويلة .. ولا أعرف أن كانت هذه الطيور  
القائمة التي تنكأ فوق رؤوسنا طيورا حقيقية أو هي أوهامي ..  
أو هي الطيور التي رآها فرعون مصر وهو يروي أحلامه للنبي  
يوسف عليه السلام .. هل هي غريبان أو صفور .. أو عصافير  
أو فراشات .. أو هي فقط حائرة فوق حروف الكلمات التي  
لا تقوى على الخروج من فمي .. أو التي خرجت بالفعل من أفواه  
الزملاء ولم أجد لها معنى ولا طعما ! ..

ليس هذا مصرا مهجورا . انه أحد الاديرة . وقد تركه  
الرهبان .. ووجدت فجأة أنني أستطيع أن أفتح عيني وأن أتحكم  
في قدرتي على الفهم والتركيز عندما سمعت من أحد جنود الأمم  
المتحدة أن في الدير مكتبة جيدة .. وأنه في إمكان أن أراها لو  
أردت .. والحقيقة أنني أريد ولكنني لا أستطيع .. وإذا لم  
أستطع اليوم : فسوف أستطيع ذلك غدا . وعلى مهل .. وتخيلت

نفسى بسرعة أنني أحمل معي إلى القاهرة عشرات من هذه  
الكتب .. ولم أستطع أن أتخيل أنني أحمل المئات .. فقد كان  
خيالي عاجزا عن المئات فاكتفى بالعشرات ..

وكان لا بد أن نتنظر بعض الوقت حتى يعثروا لنا على غرفة  
تظيفة .. أو على غرفة يمكن تنظيفها بسهولة .. وحتى يجدوا  
الشخص الذي يتطوع لتنظيفها .. لأن أحدا لا يمكن أن ينظفها  
بالامر .. فلا أحد هنا يأمر ولا أحد هنا يطيع .. لا حكومة ..  
لا دولة .. لا قانون .. فالحكومة منقسمة قسمين .. والقسمان  
منقسمان قسمين .. ولا أحد يقوى على تنفيذ الأوامر المتضاربة  
التي يصدرها الرئيس كازافوبو .. والرئيس لومبيا .. والرئيس  
تشومبي .. ( وأرجو أن تعطيني من ذكر أسماء شيوخ القبائل  
التي يصل عددها إلى ألف قبيلة ! ) ..

وأخيرا قبل لنا أن هناك غرفة ..

وعلينا أن نصبر ساعة أخرى ..

أوعلينا أن نشغل أنفسنا بأي شيء ..

وفجأة قال واحد منا : لو انفتحت لك طاقة القدر فما الذي  
تطلبه .

فأجاب احدنا : كوب ماء !

وقال آخر : دش باردا ! ..

وقال ثالث : سندوتش فول ..

وقلت أنا : اطلب اليها أن تغفل مفتوحة نصف ساعة .. لأن  
الذي أحتاجه كثير جدا !

وكان طاقة القدر كانت مفتوحة فعلا فوجدنا العرقة .. وفي  
العرقة سرير .. وفيها مصباح ..

وكان طاقة التندر انقفلت : فقد كان من الضروري أن ننام جميعا  
في هذه العرقة .. نحن الأربعة ننام على السرير .. أو اثنان ينامان  
على السرير .. واثنان ينامان على الأرض ..

وفي هذه اللحظة اعترضت على أن تكون أغنية النوم هي أحسن  
الأغاني .. وإنما أغنية : نابل نجومك شهود على لوعتي يا ليل ..



اذن لابد ان اسكت ..

ولكن لم اسطع .. فانا ما ازال مرهقا .. والراحة التي حصلت عليها تكفى لان افتح عيني .. وتكفى لان اشعر بهذه الحشرات المروعة ..

وباديت زميلا نائما على السرير وفلت له : اصح .. اصح ..

قال : ماذا حدث ؟

قلت : لم يحدث شيء ..

قال : يا اخي اسكت .. انا تعبان

قلت : انا تعبان اكثر منك .. ولكن اريد ان اسالك ..

قال : تسألني الآن ؟

قلت : ضروري .. المسألة في غاية الخطورة ..

قال : هل انت جاد .. ؟

قلت : جدا ..

واعتدل في جلسته ليمسح مني هذه القصة التي لا اساس لها من الصحة .. قلت : ان الطعام الذي تناولناه من ساعتين كان عبارة عن لحم قرد .. وانا اعرف هذا اللحم .. فلقد اكلت لحم القرد اكثر من مرة .. واعرف النتيجة .. اعرفها .. بل اشعر بها .. لقد سبق لي ان شعرت بذلك .. ولولا ان طبيبا انقذني لكنت الآن في حديقة الحيوان بهونج كونج ..

ولاحظت انه فتح عينيه .. واخذته الدهشة .. وسحبت الدهشة من قلب السرير حتى طسرفه .. وسحبت قدميه الى الارض .. وسألني : لا أنهم عاذا حدث بالضبط ؟

اذن هو يريد ان يسمعني من جديد .. اذن هو قد صحا تماما .. وهو خائف جدا .. فلت له : لقد اكلت لحم القرد في هونج وكونج .. ومن خصائص هذا اللحم ان الذي يأكله تظهر عليه أعراض القرد .. فيهرس وتتغير نبرات صوته ..

وراح ينظس الى يدي وهما يفرشان جنبي ، تماما كما يفعل القرد ..

وكان التعب اقوى من خيالي ومن احلامي ومن بقايا الكبرياء .. وارتميت على الارض .. ولم يكن يفصل بيني وبين الارض غير الصحف الصباحية التي جئت بها من القاهرة .. وتمددت .. وتشجع زميل آخر فنام الى جوارى .. اما الزميلان الآخريان فقد ناما على السرير .. ولم يقو احد منا على ان يطفىء النور .. اما من التعب .. واما من الخوف .. واما من الحرص على اصطيد الحشرات والهوام التي تتساقط من السقف علينا .. او التي تكون في طريقها من الارض الى السقف فتفضل ان تخترق اجسامنا .. او تفضل ان تبيت في ملابسنا على ان تبيت في الغراء .. او لعلها قد اشتاقت الى اللحم الابيض ..

واعتقد انني نمت بعض الوقت .. كائني قطعة من الحديد الملتبب اسقطت في ماء بارد .. فبعد لحظات من النوم المفاجيء العميق صحت .. لاجد نوعا جديدا من النار .. فقد تكاثرت الحشرات على عنقي وسائني .. وعرفت أهمية المصباح المضيء .. وفتحت عيني - استطيع ان اقول انني انا الذي فتحت عيني .. وهذا اكتشاف عظيم لانه يدل على انني قادر على التحكم في أعضائي - ووجدت محاولة قتل هذه الحشرات شيئا .. فلا يمكن حصر هذه الحشرات .. انها جيوش .. ولا اعرف بالضبط ما اسمها .. انها ليست كالنمل ولا كالقمل ولا كالبق .. ولا كالصراصير .. انها مستديرة وزرقاء وحمراء ولا معة .. وتمشي في جميع الاتجاهات .. وتوهمت - من شدة الخوف - ان احداها هي ذبابة تسي تسي .. واظن انني قد رايت صورة لهذه الذبابة في بعض الكتب .. ومعنى ذلك ان " النوم " ليست اغتيبي المفضلة .. ولكنه نهائى المحنومة ..

ووجدت زملائي جميعا نائمين .. ومعنى الحياء ان اوقف احدا منهم .. ومعنى اليأس من ان تشترك جميعا في مكافحة جيوش الحشرات الاستوائية .. ولو ايقظتهم فابن نذهب .. ان الليل طويل .. والصمت رهيب .. والاسوات التي تجيء من بعيد لا اول لها ولا آخر .. وربما كان الصوت الوحيد الذي استطعت ان اميزه هو صوت التماسيح .. انها تبكي كالاطفال .. ونحن على مسافة امتار من نهر الكونغو الهائل .. الواسع العميق الشائر .. وهو مليء بالتماسيح - اما الصرخات والهمهمات والهمسات .. والصفير والشخير .. والمواء والعواء .. فلا اعرف لها مصدرا ..

وبدا الخوف على وجهه عندما وجدني جالساً مقرئاً ..  
أتلو وأهبط ..

وسألني : والحز ؟

قلت : لا أعرف ..

قال : إلا يوجد دكتور هنا .. طبعاً هنا يعرفون هذه الكارثة  
التي نصيب الأجنب .. ولا بد أن لديهم مناعة ضد لحم القروذ ..  
ولم أزد عن قولي وأنا أهرش بسيدة على عبارة : لا أعرف ..  
لا أعرف !

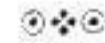
أما الاحمرار الذي كان في عيني ، وأما البريق الذي صاحب  
هذا الاحمرار فهو بسبب براعتي في التمثيل .. واحسبني  
باعتقاب النهاية ..

وجاءت النهاية : لقد ففر من السرير .. خائفاً وانطلق إلى  
خارج الغرفة ..

وقفزت فوق السرير بكل قولي ..

وسقط السرير ..

ولم تنه فرحتي !



:: سهر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

## أني خدمة يا ولدي !



فقط عرفت ما معنى كلمة : المستحيل ..

والآن

والجواب المستحيل هو كل شيء .. وأي شيء ..

فلا أمل عندي في كوب ماء .. أو لقمة عيش .. أو

صابونة أغسل بها وجهي .. مع أن الماء هنا تحت كل مايمتر من

الأرض أو من قشر الشجر . والفاكهة هنا في الغابة في عدد أوراق

الشجر .. ولكنها ممنوعة .. ويقال مسمومة .. ولكن أهل

الكوتغو عندهم مناعة ضد السموم وضد الحشرات والزواحف

وضد كل عوامل المرض والفتنة .. أما لانهم مرضى بالفعل ..

أو موتى حقيقة .. وأما لأن هذه الحشرات قد ملت دمائهم

وتتطلع إلى دماء جديدة .. مع أن تركيب الدم واحد عند كل

الناس .. وربما كان الخلاف بين الدم والدم هو في الغطاء

الخارجي .. أي في البشرة فقط ..

ووجدت مواطناً في الطريق المرصوف - وكل الطرق هنا

مرصوفة وناعمة .. الوف الكيلومترات . وقد حرص البلجيكيون

على الطرق الكثيرة والمطارات المتعددة .. فالبلاد واسعة -

وسألته : إلا توجد هنا دار للسينما ..

وقال الرجل : كانت عندنا أكثر من دار ولكنها الآن مغلقة .

قلت : السيتما فقط ؟

قال : لم أفهم ..

قلت : أقصد صالة العرض هي المغلقة أما المطعم فلا بد أنه

مفتوح ..

قال : كل شيء مغلق ..

قلت ( ضاحكاً ومحاولاً أن أكون ظريفاً ) : إذن بلادكم الواسعة

: تضيق بالاصدقاء ..

قال : لماذا ؟

قلت : لأننى لا اجد كوب ماء .. ولا اقول فنجان قهوة ..  
قال : بل هنا مطعم قريب ..

قلت : مطعم ؟ قريب ؟

لم اسمع كلمة مطعم بوضوح رغم انه قالها .. وانا رددتها ..  
وكنت أسحب ذراعه .. وأسحب يده .. وأصبعها من يده وأشار  
الى مكان المطعم .. وأشار هو برأسه فى اتجاه المطعم .. ولم اجد  
وقتنا لأشكره . وذهبت وورائى الزملاء ..

انه مطعم جيد .. نظيف .. وعلى شاطئ نهر الكونغو ..  
ولا اعرف اسمه . والاسم - كما يقول شيكسبير - لا يهم ..

والمطعم له كل ملامح المطاعم الاوروبية الجيدة .. وبه مناصد  
وترايزات .. وبه اهم من المناصدا اناس .. واهم من هؤلاء  
الناس : نساء .. نساء جلسن وحدهن .. وأمامهن زجاجات  
البيرة الصغيرة والكبيرة .. ومن بين الزجاجات يتعالى دخان  
السجائر .. اما اصواتهن فأعلى من هذا الدخان ..

دعنى أحدثك عن هذا الظهر المفاجيء للحياة ..

النساء قد ارتدين ملابس بيضاء .. الجيب بيضاء والبلوزة  
ملونة .. وكل واحدة لا تقل سنجا عن ثلاثين عاما ولا يقل وزنها  
عن ٨٠ كيلو جراما .. ولا يزيد طولها على ١٦٠ سنيمتر .. اما  
خط الصدر فمثل خط الازداف اكثر من ١٢٠ سنتمترا .. واما  
خط الخصر فنصف ذلك ..

وهن يتكلمن الفرنسية بصوت مرتفع .. واذا صح فهمى  
لحركات السيدات فان هذه الارتعاشة فى العين هى غمزة فى  
اتجاهنا .. وعلى سبيل اللعب والشقاوة حاولت ان اعرف من  
هو المقصود بهذه الغمزة فأخفيت وجهى وتشاغللت بالكلام ..  
واستمرت عملية الغمز بالعين اليمنى مرة واليسرى مرة اخرى ..  
اذن فلست انا المقصود .. وانما المقصود هو كل من يجلس معى  
.. او نحن جميعا .. فهى غمزة عامة !

وبعضنا قال : ما رأيكم ؟

وبعضنا الآخر قال : هل نظن ان الفتيات سوف يدعوننا الى  
الغداء ..

قلت : اما الغداء فلا أريده .. انما اريد فنجان قهوة ..  
ومتنازل عن الغداء والعشاء ..

وغيرت مقعدى .. وادرت ظهري للفتيات .. ولكن اذنى كانت  
تلتقط كل ما يصدر عنهن من كلمات .. وكان الحوار بين الثلاث  
فتيات تقريبا هكذا :

- اظنهم جماعة من اليونانيين جاءوا يفتحون دكانا هنا ..  
- معك حق .. فاليونانيون موجودون فى كل مكان .. ولو  
غرقت الدنيا لظهر رجل يونانى يبيع أطواق النجاة ..

- ولكن يظهر انهم جميعا ليسوا تجارا .. فأغلب الظن ان  
أحدهم طبيب .. فأصابعه رقيقة .. وحركاته بحساب ..

- ايهم ؟

- ذلك الذى أعطانا ظهره .. وهو أكثرهم حركة وأكثرهم قلقا

- طبيب ؟ انه أقرب الى المرضى منه الى الاطباء ..

- لعله عاشق ..

- وجاء يتوب فى الكونغو ..

- طبعا على يديك ..

وهنا تقدم جرسون وعلى يديه صينية بها أربعة فناجين قهوة .

وقبل ان اسأله كيف عرف اننى اكاد اموت شوقا وعطشا  
ومزاجا الى فنجان واحد أشار بيده الى حيث جلست الفتيات  
الثلاث ..

وكان من الذوق ان استدير لأشكر .. وبعد ان أشكر أتساءل  
كيف عرفن ذلك ..

واستدردت لأشكر .. وانفردت صاحبة الفمزات واللمزات  
بالشكر .. وبحركة من يدها رفضت الشكر . تماما كان الشكر  
كرة تنس ويدها مضرب .. وأصابتى الشكر فى دماغى .. فقررت  
ان اذهب اليها أشكرها .. وأعرف منها كيف عرفت .. وهل  
يمكن ان يذهب بها الكرم لدرجة ان تأمر لنا بفنجان آخر ..

ومددت يدي شاكرها لها .. وشاكرها للآخرى .. وللثالثة ..  
وسحبت مقعدا وجلست وقدمت نفسى .. وقدمت كل واحدة  
نفسها : جورجيت .. سوزى .. نادية ..

قلت : تادية .. اسم عربى .. ويمكن عالمي ! ..

قالت : أنا عربية .. وعندى كمية كبيرة من البن اليمنى ..

قلت : ربنا يديم العروبة .. والاخوة .. والقهوة .. وبعوضك

قالت : يعوضنى عن ماذا ؟

قلت : عن كل ما عندك من بن !

قالت : كل البن ؟ بعضه فقط !

قلت : وحضرتك ماذا تصنعين هنا .. ؟

قالت : عاطلة .. وزميلتى عاطلة جدا .. والزميلة الثالثة

ضائعة ..

قلت : الحال من بعضه .. ونحن ايضا نريد ان نعمل ولكننا

لا نستطيع .. لا لانه لا يوجد عمل ولكن لانه لا يوجد وقود ..

لا ماء ولا طعام ولا ماوى ..

ولم تتحمس الفتيات لهذا الموقف الذى يبدو انه موقف

تسول .. مع ان هذه هى الحقيقة ..

وعندما مدت يدي اعترف واكرر الشكر .. بدا الضيق على

وجود الثلاث فتيات .. اما السبب فهو اننى تظاهرت باننى

لا افهم بوضوح ما يقبله .. ولم افهم معنى ان الثلاث يسكن في

فيلا مهجورة في آخر المدينة .. وانهن يفضلن ضوء الشموع على

المصباح الكهربائى .. وانهن يفضلن الطعام الساخن جدا مع

المشروبات المتلجة جدا .. وانهن يتفعلن برقم سبعة : هن ثلاث

ونحن اربعة .. وان اليوم هو يوم ٧ من الشهر السابع .. مجرد

صدفة ذكية ! ..

ولم افهم معنى هذه الاقتراحات الوجيهة ..

واعتقد ان كلمة : « دويشه » وهى كلمة بدائية كونهولية

معناها : غيبى ..

لقد تكررت هذه الكلمة عشر مرات على الاقل في كل مرة

اعترف فيها : اننى لا افهم ..

وانا اقطع بان هذا معناها .. لاننى لاحظت ان هذه الكلمة

تخرج من الفم مع مط الشفتين الغليظتين وحركة بالقدم على

الارض .. تماما كما يبصق انسان على الارض ثم يخفى معاله

هذه الجريمة الصحية بحدائه !

وافقت من هذه المناقشة على سؤال رن في اذنى : معقول  
تصل الى الكونغو ولا ترى لومومبا ؟

صحيح هل هذا معقول ..

وكان الجواب ان هذا معقول جدا .. فنحن لا نعرف اين هو

الآن .. ولا احد يعرف .. نبتو قد اخفى مكانه عن رجال القبائل

وعن خصومه .. وحتى لو عرف الناس مكانه فانهم لا يستطيعون

الوصول اليه .. فلا توجد مواصلات .. التليفون وحده لا يكفى

.. لان التليفون يصل بين بعض المدن فقط ..

وخرجنا من المطعم وعلى وجوهنا ابتسامات مقتضية للفتيات

الثلاث ..

وعندما خرجنا من المطعم قابلنا الطبيب الدنمركى وسالته :

هل هناك امل في رؤية لومومبا ؟

فاجاب : لا امل ..

قلت : المواصلات .. ؟

قال : انا اعرف مكانه .. ولكنه هو

قلت : ماله ؟

قال : انه في حالة نفسية سيئة جدا .. لا يكف عن الصراخ

والشراب في وقت واحد .. وكثيرا ما خرج الصراخ شرابا ، وكثيرا

ما تحول الشراب الى صراخ .. الى مقص واقعاء ..

قلت : اذن ما الذى تفعله ؟

قال : ضاحكا : حاولوا اقتاعه بان يكف ..

قلت : اسهل ان اكف انا عن طلب اى شىء منك ..

قال : هل غضبت ؟

قلت : لا جدوى من الغضب فليس امامنا احد سواك ..

نسأله فلا يجيب ..

ولكن كان من الصعب ان اقتنع باستحالة لقاء لومومبا ..

واتفقنا على ان نبحث عن طريقة لرؤيته .. ولكن اتفقنا لا بهم

ولا فيعة له .. ما دمنا عاجزين عن تنفيذ هذا الاتفاق .. او عن

الانتقال من مجرد الكلام الى العمل ..

وعندما عدنا الى المطار الصغير حيث توجد بعض قوات الامم المتحدة سألت احد الضباط السويديين : الا توجد طريقة لرؤية لومومبا ..

وكان جوابه : لقد اختفى اليوم ..

وعرفت انه اختفى في مكان .. في أى مكان .. فليس من الضروري أن أعرف أين .. لأنه من السهل على هذا الضابط السويدي أن يشير بيده المربوطة بالشاش الأبيض الى الغابة .. او الى نهر الكونغو .. لانيم ان لومومبا قد اختفى في هذه الأماكن وسألته ان كانت هناك أية صحف .. أية خرائط .. أى جهاز راديو لتسمع أى شيء .. لتعرف أى شيء ..

رفع كنفية الى اعلى كأنه يلقي بالمسئولية من فوقهما .. وحمدت الله ان المسئولية قد سقطت على الارض .. ككل شيء هنا : على الارض وفي الارض .. فلا احد مسئول عن أى شيء .. ولا حتى قوات الطوارئ الدولية .. انها قد ارتدت الملابس الانيقة .. وكدست وراءها العلب الملونة لانواع الطعام المختلفة .. وملأت جيوبها بالسجائر والسيجار .. ووجهها بالابتسامة وبالضحك .. اما مرتباتهم فتتحول من تلقاء نفسها الى البنوك ..

اما الناس الذين جاءوا لحمايتهم فلا يعرفون عنهم شيئا : لا حكومة ولا شعبا .. ولا لومومبا :

وتساءلت فجاء : ما الذى يمنع ان تكون هذه البلاد أى بلاد اخرى .. فلا يوجد أى دليل على أننا في الكونغو .. فان أحدا من الناس الذين قابلتهم قد ذكر لى اسم هذه البلاد .. بل اننى فى مطار القاهرة قد سمعت اسم الكونغو من احد رجال المطار .. ولكنه حتى عندما ذكر اسم الكونغو لم يكن يقصد الطائرة التى سوف أسافر بها .. وإنما ذكر كلمة الكونغو مرادفا لكلمة هيصة .. واتذكر انه قال بالحرف الواحد : أصلها هيصه .. كونغو !!

ولا توجد هنا لافتة واحدة ..

ودفعنى هذا النسك الى ان افف هذا الموقف المضحك .. فالتفت الى موظف ارندى القميص والبنطلون وقد ظهر جادا

مهموما .. أو هكذا حاول ان يبدو أمامى .. ربما لانه وجدنى مهموما .. أو ربما وجدنى خاليا عاطلا .. فانتهاز هذه الفرصة ليبدو أكثر اهمية .. وأكثر فائدة لبلاده .. اقتربت منه واطلقت ابتسامة عريضة فى وجهه .. كأنها يد ممدودة لتحيته .. وقلت : قل لى .. أى بلد هذا ؟

فأجاب : انه بلد ..

قلت وأنا احاول ان أعرف حقيقة : الذى يراء لأول مرة ينصرون انه الكونغو ..

فضحك قائلا : هل تعرف ما الذى قاله فيكتور هيجو عندما كان مريضا .. ونظر الى نفسه فى المرآة .. قال : الذى لا يعرفنى يخيل اليه اننى رجل حافد على فيكتور هيجو ..

ولما لاحظت أن الموقف لا يحتمل مثل هذا الضحك سألته : هل هذه هى الكونغو حقيقة ؟

فأجاب : لا افهم ماذا تقصد .. كيف كنت تصورها .. تماشيح وأكلة لحوم البشر .. اننا يا سيدى لم نأخذ فرصتنا فقط .. وانتم تعرف مثل هذا المعنى .. أما انكم فى الشمال قد نسيتم الاستعمار وماذا يعمل فى الشعوب ..

لم أنس طيعا .. ولا يمكن أن أنسى ..

واهم من هذا كله ان هذه هى الكونغو ..

ولا اعرف ما الذى استفدته بعد أن تاكدت من ان هذه هى الكونغو .. لم استفد شيئا .. ولا أعرف كيف أضيف الى معلوماتى شيئا جديدا .. ولو عدت الى القاهرة وسألنى الناس أين كنت فلا يوجد أى دليل مادى على اننى برحت ارض القاهرة .. فلا أنا رأيت الخرطوم ولا أنا رأيت شيئا فى الكونغو ..

وكان احد الزملاء سمعنى وأنا مشغول بالحديث مع نفسى .. وكأنه رأى اضرب فكرة بفكرة .. تماما كما اضرب كفا بكف .. وكأننى كنت مسموعا فقال : عندك مانع تقوم بمغامرة ..

قلت : اليست هذه مغامرة ايضا ..

قال : مغامرة اخرى محددة ..

قلت : مثلا .. تقترح ماذا ؟

قال : نركب هذه السيارة ونخرج بها من المطار .. وهي سيارة  
للأمم المتحدة .. ومفروض أننا جننا مع قوات الأمم المتحدة وتعمل  
في خدمتها .. ما رأيك بسرعة .. لاتفكر !

ولم يكن عندي مانع .. المهم ان اخرج من هذا الفراغ الذي في  
نفسى والذي حولى .. وان المس شيئا أو احدا .. وان أسأل وان  
اعرف .. وان أقول وان يقال لى شيء ..

واتجهنا الى السيارة ..

وفي هذه اللحظة وجدنا اربعة من الجنود اتجهوا اليها أيضا ..  
ولان احدا منهم لم يتصور أننا نفكر في مفامرة : ركبوها دون ان  
يسألونا شيئا .. لقد كانوا اسبق منا الى تحقيق رغباتهم ..  
والذى صنعوه هو رغبة وليس مفامرة ..

واقترحت على زميل لى : الا توجد عندك رغبة في ارتكاب جريمة  
لن يعاقبك عليها القانون .. لان القانون اخفى هو الآخر في الغابة  
أو في النهر ..

قال : اريد ان اقتل فعلا

قلت : الجوع .. والعطش .. والارق

قال : وهذا الرجل !

واشار الى احد الموظفين من ابناء الكونغو .. فقد ذهب اليه يسأله  
عن مكان يغسل فيه يديه ..

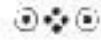
ولكن الموظف لم يرد عليه .. فظن أنه لم يفهم لغته الفرنسية  
فتحدث اليه بالانجليزية .. ولكن الرجل لم يرد ..

وتحرت ان اذهب اليه .. لايد ان هناك شيئا .. ان هناك قصة  
.. موضوعا .. كلاما .. شيئا مترا يهزنى من داخلى .. فأنا نائم  
في جلدى .. او ميت في جلدى عند أكثر من ٢٤ ساعة ..

وعندما اتجهت الى الرجل الكونغولى . لاحظت ان كلمة «تواليب»  
معلقة على باب مكتبه .. ومعنى ذلك ان هذا المكتب كان قبل ذلك  
« دورة مياه » ثم تحول بسبب زحف قوات الأمم المتحدة الى مكتب  
ملئ بالنشاط والحياة .. أى الى « دورة حياة » .. ولايد ان هذا  
المواطن الكونغولى قد توهم ان زميلى انما أراد ان يسخر منه ..

وجاء يطلب منه ان يخلى له المكتب بعض الوقت فيتمكن من ان يفعل  
شيئا ما في ركن من أركان الغرفة !

وعذرت صديقى فقد كان مرهقا . وعذرت الرجل الكونغولى فلم  
يكن يدري ان المكتب رغم ما به من اوراق - ما يزال يحتفظ برأئحته  
القديمة الاصيلة !



وعلى الرغم من ان البقعسة التي تتحرك فيها ضيقة .. فاتها تدل  
على كل شيء في هذه البلاد ..

فالشوارع مرصوفة ناعمة وكثيرة .. والمطارات متناثرة في كل  
مكان .. والمطار عبارة عن قطعة ارض مغطاة بالاعشاب وموجودة في  
قلب غابة .. او على اطرافها .. والسكك الحديدية أيضا تربط  
البلاد من كل جوانبها .. والسيارات الى تراها من حين الى حين  
لا يأس بها .. والباجيكيون قد أعدوا لانفسهم كل وسائل الراحة  
والمواصلات اهم المشاكل في الكونغو الراسعة . وهي مريحة جدا ..

كما انهم تركوا شيئا من التزمب في البلاد أيضا . فقد لاحظت  
ونحن نركب سيارة الأمم المتحدة ان بعض المشاة قد احتجوا علينا ..  
وظننا انهم يحيوننا في حماس غاضب .. او في غضب من نوع خاص  
.. ولكن لاحظنا ان الاحتجاج تكرر مرة وراء أخرى .. وكان السبب  
واضحاً : اننا نمشي على الجانب الايسر من الطريق واننا لانستخدم  
الكلاكس .. او اننا نسرف في استخدامنا !

وفجأة - كأنه هبط من السماء - رأيت احد رجال الدين .. وهو  
ككل رجال الدين عنده الكثير من الهدوء والاطمئنان كأنه يحمل في  
جيبه بوليصة تأمين على هذه الحياة وعلى ما بعد الحياة .. ولانه  
رجل من رجال الدين فهو يمضى في كل طريق وفي كل وقت آمن  
مطمئنا .. وقبل ان أتجه اليه ، كان هو قد أتجه الى .. أنه طويل  
القامة .. ابيض اللون .. لامع الجبهة والمنظار ، والاسنان والاصابع  
.. بها خواتم ذهبية وفضية .. ومددت يدي وهو أيضا .. وكأنه  
توقع ان اقبلها .. ولم افعل فلبس عندي سبب يدعوني الى ذلك ..  
وقال بحكم العادة : ماذا وراءك يا ولدى !

وهزنتى هذه العبارة العادية بصورة غير عادية . فلم اسمع  
من احد منذ عشرين عاما يقول لى : يا ولدى .. فقد مات أبى  
ولم أعد اجد معنى لهذه الكلمة بعده او قبله .. ومن الغريب أنه  
تصادف ان يكون ذلك اليوم هو يوم مولد والدى .. صدفة ..



## أهدا .. أهين باسا!

**أجا** الورقة التي في جيبى والتي تسلمتها عند نزولنا الى مطار مدينة كوكياتفيل فهي تذكرنا بأنه من الضروري ان نلتقى جميعا في المطار في مكتب ضابط جزائرى ..

وفي الموعد المحدد ذهبنا ..

المكتب نظيف .. الارض كملابس الضابط نظيفة ولامعة .. وكأنها هي ايضا « مكوية » .. والابواب مثل الزراير نصفها معدنى والنصف الآخر خشبى ..

ولم يقدم لنا فنجانا من القهوة او الشاي او يسألنا ان كانت عندنا أية رغبة في تناول شيء .. لقد نسي الرجل انه مرمى ، ولم يعد يذكر الا ملابسه والانارة المعلقة على كتفه وعلى قبعته .. والا العلم الذى يرفرف ازرق في ابيض على المنى .. وكانت محاولة خبيثة من جانبى ان اتحدث اليه باللغة العربية .. وكانت محاولة يائسة منه ان يتكلم بالفرنسية .. هو يذكرنى بأنه أمم متحدة ، وانا أؤكد له انه عربى .. او أنه من الواجب ان يكون عنده شيء من كرم العسرى .. وانتهت المباراة الى نجاح الامم المتحدة !

وتنفيذا لقرار الامم المتحدة يجب ان نعود الى القاهرة بعد ساعات .. لان الطائرة التي حملتنا هي الطائرة الوحيدة التي يمكننا ان نعود بنا واذا لم ندرك هذه الطائرة فسوف يفوتنا كل شيء ..

وأول ما يخطر على البال طبعا ان يتلمس كل منا جواز السفر الذى في جيبه ويسأل عن ادارة الجوازات وعن تأشيرة الدخول والخروج .

وقد اكتشفت اننى خرجت من القاهرة بلا تأشيرة خروج ..

وفي هذه اللحظة استعرت جواز الكونغو .. فالتفت مشاعرى وتساقت منى الدموع ..

واقترب منى القس .. ولكنه لم يعرف لماذا حدث ما حدث .. فقلت : عندي همومى الخاصة ..

فاجاب بحكم العادة : اعانك الله عليها ونلى نفسك يا ولدى ..

واستجعت رجولتى وحاولت ان اكون أكبر من الموقف .. وسألت القس ان كانت هناك أية وسيلة اخرى للحركة ولقاء الناس .. فنحن اقرب مانكون الى اسرى الحرب .. او كجماعة يلعبون لعبة « المسافة » .. فقد سافرنا من القاهرة ولما جدران الكونغو وسوف نعود غدا او بعد غد ..

وهز رأسه يؤكد لنا انها بالفعل لعبة المسافة .. ولعبة الاستعمارية .. واننى لو اقمنا في الكونغو سنة اخرى فلن تتغير اللعبة ايضا ..

وحاولت ان اجعل للكلام معنى فسالته عن المكتبة التى يقال انها موجودة في احد الاديرة .

فاجاب بانها نقلت من الدبر القريب الى دبر آخر بعد سبعين كيلو مترا .. وهذا المسافة تعتبر فركة كعب في بلاد واسعة شاسعة مثل الكونغو ..

وسألنى عن أى نوع من الكتب نقلت : اى نوع ..

وضحك وهو يقول : اعرف هذا النوع من القراء .. وسكت .. وهز رأسه في اسف تقليدى : كنت متلك ، أى انه كان مثلى يقرأ أى شيء ثم تاب الله عليه ليقرأ شيئا محمدا .. او ليتوقف عن القراءة !

وقاومت رغبتى في ان اقول له انى في حاجة الى فنجان قهوة .. وان زملائى المساكين في حاجة الى رغيف عيش .. وانا جميعا - مثله - على باب الله !

وكانه على موعد مع اناس آخرين قال : هل تريد منى خدمة يا ولدى !

وفقدت شهيتى الى سماع كلمة يا ولدى .. وشكرته .. وفي اللحظة التى تلقى منى فيها الشكر : رفضه بهزة من يده ورأسه .. واستدار بسرعة .. واخفى في سيارته .. واختفت سيارته الصغيرة في الطريق الطويل .

فلم يسألنا أحد عن جواز السفر .. لافى مطار القاهرة ولا فى مطار الكونفو .. ومعنى ذلك اننا - رسميا - لم نخرج من مصر ولم ندخل الكونفو ..

ولكن ما الذى يمكن ان يحدث لو - بمحض الصدفة - ضبطنا احدى الهيئات الطبية فى مطار القاهرة وليس معنا شهادة تطعيم ضد الكوليرا مثلا والحمى الصفراء وغيرها من الامراض المتوطنة والوبائية ؟

وسألنا رجال الامم المتحدة .. واقترحوا ان نأخذ سيارة ونذهب بها الى احدى المدن المجاورة .. ولم تعرف اسم المدينة .. وانما قيل لنا ان السائق يعرف وهذا يكفى .. وهناك سوف تجد طبيبا .. وعنده تعليمات لأجراء اللازم !

اي اننا موضع اهتمام وتعليمات واجراءات وانها سننفذ جميعا ..

وفى السيارة لم يتكلم السائق الدولى كلمة واحدة .. لا بالعربية ولا بالفرنسية .. هو ابتلع لسانه ونحن ايضا ..

وحتى عندما نظرت الى مؤشر السرعة فوجدت انه تجاوز المائة والعشرين كيلو ابدت اعجابى بالسيارة وبنعومة التسارع المرصوف .. وكانت هذه حقيقة لا محاملة فيها ، فلم يرد بكلمة واحدة .. وكأنه توقع منى ان استمر فى الثناء عليه .. فاقترت منى قليلا اعلى ارفع صوتى على صوت الموتور ، ولكنى لم افعل .. وتركته يتوقع وانشغلت بالنظر الى الحقول .. والى الغابات .. وتوهمت اشكالا لحيوانات غريبة ..

وعرفت فيما بعد ان هذه الحيوانات التى رايتها كانت بالفعل حيوانات متوحشة ولكن الاوصاف التى اذكرها ليست صحيحة .. فهى مختلفة تماما عما رايتها .. واندهشت قائلا : وهل انا مسطول ؟

فاجاب الطبيب الكونفولى : نعم ..

سألته : ماذا تقصد ؟

قال : من هذه البقع الصفراء على قميصك .

قلت : وما هذه البقع ؟

قال : انها فاكهة نأكلها باحتراس شديد وليس فى هذا الوقت من العام .. لانها لم تنضج بعد .. ولا بد ان احدا قد داعبكم بهذه الفاكهة ..

وضحك . ولم اضحك . وشعرب بدوخة مفاجئة .. اما بسبب الحقنة التى غرسها فى جئدى .. او بسبب المشرب الذى اسأل دى ..

وتذكرت ان فتيات الكونفو قد ملأن جيوبنا ببعض هذه الثمار .. وظننا - بحسن نية وغرور اكيد - انه الاعجاب .. او الحب من اول نظرة .. ولم تكن هذه الثمار فى طبق او فى تلاجة .. وانما كانت تتدلى من شجرة ادخلت فروعها الى داخل المطعم .. ومن الغريب ان هذه الفاكهة الصفراء لذيذة .. وان كانت لاسعة الطعم .. كأنها نوع من الجوافة الطعمية بالماسنجو والمرشوش عليها القليل من المستردة والشطة .. لذيذة ..

وهى تصيب من يأكل الكثير منها بشيء من الهلوسة ..

وبدانا نراجع تصرفاتنا .. واخذنا نضحك .. ولم يتسع وفنا لتسأل ان كان هذا الضحك الشديد الذى اسأل عيوننا هو من آثار هذه الفاكهة .. او انه شيء طبيعى ..

وحاول بعضنا ان يعتر على هذه الشجرة او اية شجرة مماثلة لها .. ولكنه لم يجد ..

ولم يكن من الصعب علينا تغيير تواريخ الشهادة الدولية التى صرفها لنا الطبيب الكونفولى .. والا حجزونا فى الحجر الصحى فى مطار القاهرة اسبوعين آخرين .. وقد حدث بالفعل لبعض الزملاء .. والحقيقة انى لم اكن فى حاجة الى هذه الشهادة الدولية فعندى شهادة صالحة للخمس السنوات القادمة .. ولكن لم يتسع وقتى لاحضارها معى ..

وبسرعة عدنا .. وبسرعة نزلنا من السيارة . ووجدنا الطائرة فى انتظارنا ..

ولاول مرة ارى الطائرة بوضوح .. انها جراج واسع .. ارضها معدنية وجدرانها كذلك .. وقد اصبحت نظيفة وشديدة البرودة .. واحسنت كأننى عريان ملط .. وان ملابسى لاتحمينى من أى شيء .. المقاعد المعدنية تلسعنى كالجلوس على البلاط .. جدار الطائرة كالمقاعد بارد .. ومن قلب الطائرة يرتفع سلم الى كابينة القائد .. ومن كابينة القائد ارى بعض الوجوه .. انه أكثر من طيار .. وفى الكابينة حركة غير عادية .. لقد تحركت مراوح الطائرة .. واحدة بعد واحدة .. وزمجرت الطائرة وبدون أية تعليمات تحركت



الطائرة الكبيرة جدا .. ومنست على الارض الخضراء .. وارتفعت في الهواء .. الى ابن ؟ لا احد يعرف بالضبط .. لم يدرك بيننا اى كلام .

ولا تزال الحركة غير عادية في كابينة القائد ..

والآن يمكننى ان اصف هذه الحركة .. انهم يتناولون طعام الافطار .. يفتحون عليا كبيرة .. العلب من الصفيح .. ويبدو انها مثلجة وفي ايديهم سندوتشات كبيرة مملوءة باللحوم الباردة .. ومعهم فطائر من التفاح .. وكل شيء عادى جدا .. فهذه الطائرة بيتهم المتحرك .. ولا علاقة لهم بالركاب سواء كانوا مدنيين او عسكريين .. انهم جماعة من الامريكان في مهمة دولية ..

وربما كان الشعور بالجوع والعطش هو الذى جعلنا نشعر بالبرودة اكثر .. وحاولنا ان نغطي هذا الموقف بالكلام .. ولكن من الذى يسمع منا .. ان صوت الطائرة صارخ .. ثم ما هذا الكلام الذى يمكن ان يدور بيننا .. فكنا نضحك بلا سبب .. او كنا نضحك للسبب الذى عرفناه أخيرا ..

ونبهت وتسللت الى الكابينة : صباح الخير .. ورد الكابتن : صباح الخير .. بيرة .

قلت : شاي ..

قال : حالا ..

قلت : شكرا .. ولزملائى ايضا ..

قال : حالا ..

وفعلا جاء الشاي الساخن .. وبهذه السهولة ..

اذن من ابن جاءت هذه الصعوبة التى نتعذب بها .. الشاي سهل .. والشراب سهل .. والطعام سهل ..

ولكن احدا منا لم يحاول ولم يطلب .. ان كل شيء موجود وراء هذه الابواب وهذه الستائر .. وفوق هذه السلالم .. ووراء هذه الوجوه .. ولكننا لم نحاول ان نددق بابا وان نضعد سلما وان نقول صباح الخير وان نتنظر الرد ..

وقال : سندوتش ..

قلت : ان كان ممكنا ..

قال : ممكن ..

قلت : ولزملائى ايضا ..

قال : ولصديقاتكم .. ان كانت لكم ..

وضحكت . وشجعتنى الشاي والسندوتش والدفء الموجود فى الكابينة والالفة الانسانية التى تتم بسرعة بين الناس دون ان اعرف من هو .. ولا هو يعرف من انا .. انا فى مهمة وهو فى مهمة . ونحن الاثنين فى طائرة واحدة فوق الكونغو .. ونتفاهم بلغة دولية .. لغة الذوق والمجاملة .. لغة مفرداتها الابتسامة والكلام والشاي والخبز .. وتطرفت فى الكلام ورويت له قصة فاكهة الهلوسة .. وضحك .. وتمنى لو انه ذاقها .. واخرج ورقة وقلم ليكتب اسم الفاكهة .. ثم اعاد القلم والورقة الى مكانهما عندما عرف اننى لا اعرف .. ولكن الاسف كان واضحا على وجهه .. ولكن لحسن الحظ لم يصل الى درجة ان يسحبمنى الشاي والسندوتش ..

واشار من نافذة الطائرة الى الارض .. وقال : هذه بحيرة فكوريا .. طبعاً !

من هنا يتبع نهر النيل العظيم ..

ليس شكل البحيرة واضحا . ولكن الماء لونه ازرق تركوازى .. وتوجد زوارق صغيرة .. او حيوانات كثيرة بالقرب من الشاطئ .. هذه الحيوانات هى وحيد القرن .. السيد قشطة .. عددها كثير .. وان كانت تنقرض هذه الايام .. وكذلك التماسيح .. فالمفروض ان يضع التماسيح بيضه على الشاطئ وقتا طويلا .. ولكن كثرة الحركة السياحية فى جانب من هذه البحيرة يجعل التماسيح يهرب الى الماء ويترك البيض فتجئ بعض الطيور او الحيوانات المفترسة وتاكل البيض ..

وسالنى كابتن الطائرة ان كانت القعدة مريحة .. واشار الى حيث كنا نجلس فقلت : عذاب فى الذهب وعذاب فى الاياب !

ولم يهتم .. فهو كرجل عسكري .. قد اعتاد على هذه المقاعد الموجعة لكل خلية فى الجسم .. واشار الى زميل عجوز وقال : ادوارد ..

وجاء العجوز ادوارد انه يشبه العمدة فى افلام رعاة البقر .. طويل القوام .. مقطب الوجه .. اذا تكلم اهتز .. وتمايل .. ولكن يده دائما قريبة من مسدسه .. ولم تكن على صدره النجمة المعروفة .. وجاء ادوارد ونظر اليها .. كأنه يرانا لأول مرة ..

وساله : التكييف متعطل ..

ورد عليه ادوارد بيزود انه من رغبة وسقف الطائرة : انه لا يعمل ..

وهنا اعتذر الكابتن واصبح هو جهاز التكييف !

وفي لحظة تحولت الطائرة الى غرفة دافئة مريحة للاعصاب ..  
وأصبح الهواء كأنه نعومة الحرير والمخدرات والالحة .. ونامت كل  
خلية حية في جسمي .. وهفتنا جميعا لادوارد : الله يخرّب بيت  
أبوك يا عمدة ..

وسألني : ماذا تقولون ..

فقلت : التمسيد القومي ..

فقد كان في استطاعة ادوارد هذا ان يشغل التكييف منذ ساعات  
ويرحمنا من البرد الشديد الذي دغدغ عيوننا ودشش بقية  
الاعضاء ..

اما انا فعندى مقياس البرد لا يخطف : انى اشعر به في الجانب  
الايمن من بطني ..

واختفى احساسى بالجانب الايمن من بطني .. واحساسى ببطني  
.. اذن فالجو دافئ والسما صحو .. والشمس مشرقة ..  
وما تزال بحيرة فكتوريا تحننا .. وما تزال في المناطق الشمالية من  
الكونغو .. والطائرة متجهة الى السودان ..

ولكن الحالة المعنوية احسن ..

والكلام الذي دار بيننا هو من وحى الدفاء .. ومن وحى  
الشاي والسندوتشر .. ودفء العلاقات الانسانية التي تولدت  
بسرعة .. حتى ادوارد العجوز ما يزال جالسا عند اعلى السلم  
وقد وضع ساقا على ساق واستعاد ذكريات حزينة .. ووضح  
انها حزينة .. وراح يفرقها في اكواب البيرة الباردة .. ويرفع  
صوته بالغناء .. انه مبسوط ..

وعندما اهتزت الطائرة فجأة .. هز راسه واشتار بيده ..  
اشارة لم تفهمها .. وبدأت الطائرة تهبط .. ومن النافذة بدأت  
الارض الخضراء تقترب .. والغابات الكثيفة في كل مكان .. وهبطت  
الطائرة .. ولكن المطار مختلف .. فله ممرات .. وهناك برج ..  
ووقفت الطائرة ، وانفتح الباب الخلفي .. ونزلنا من نفس المكان  
الذي نزلت منه عربات الجيش والذخيرة المصرية .. وأشار الينا

ادوارد ان تنزل .. وقال لنا : الا اذا كان احد منكم يريد ان يبيت  
هنا ..

ولم يكن عندنا كلام نقوله ..

ولكن غابت علينا الرغبة في ان تعرف اين نحن .. وان نشفرج  
واذا لم نجد مكانا عدنا الى الطائرة .. اما هو فيحكم العادة اخرج  
بطانية .. او مرتبة .. ودخل فيها .. وشد السوسته .. ونام في  
جانب من الطائرة .. ويبسود انه نام بالفعل .. وفي دقائق ..  
ونزلنا من الطائرة .. ووجدنا البوفيه .. البوفيه نظيف ..  
والجو نفسه منعش .. والمكان مرتفع .. والجرسونات يمشون  
حفاة ولكنهم يلبسون طربوشا فاقد الاحمرار .. والزر الى الامام  
.. والضحك على وجوههم جاهز .. واية اشارة اليهم تجعلهم  
يضحكون اكثر .. انيم كآباء القليلين واندونيسيا يضحكون على  
القاضي وعلى اللبان .. وليسوا كآباء اليابان الذين يضحكون  
بحساب : فهم يضحكون ليعطوا لانفسهم ولغيرهم فرصة  
للتفكير فيما بعد ذلك .. اى فيما بعد الضحك ..

فالضحك في اليابان مثل هذه المسافة البيضاء التي جاءت في  
هذا السطر .. انها مسافة وبعدها يجيء الكلام ..

وهذا البوفيه مشجع .. والضحك مشجع اكثر .. والحاله  
المعنوية عالية .. ولا أوجاع في البطن ولا في الراس .. وقلت لواحد  
منهم : هل نحن في كينيا ؟

والآن اريد ان اصور ما الذي حدث في البوفيه .. اريدك ان  
تتصور ان قبلة من قنابل الغاز التي تبعت على الضحك وتسيل  
الدموع قد انفجرت في كل واحد من الجرسونات السبعة الموجودين  
في البوفيه .. وان هذه القبلة متعددة المراحل .. وان مرحلتها  
الاولى قد انفجرت في العينين .. والثانية في الفم .. والثالثة  
في البطن .. والرابعة قد انفجرت في البنطلون .. وان هذه القبلة  
اسمها : هل نحن في كينيا ؟ ..

لقد تعالت اصوات الجرسونات بالضحك والدموع .. والتساقط  
على الارض ..

وبدا الزملاء يسألوننى عن النكتة التي قلتها .. وكررت ماقلت  
.. وانفجسوا هم ايضا .. وبعد ان زال اثر القنابل المضحكة  
اقترب واحد منهم وقدعاوده العبوس الذي يعقب الانفعال الشديد  
وقال : نحن في أوغنده !

وسألت جادا : أين نحن ؟

قالوا : أنت في أوغنده .. وهذه مدينة عنتيب ..

لا أعرف الكثير عن هذه المدينة .. ولو تركنى وحدى هذا الجرسون الذي أعجب بيراعنى في صناعة الشاي لعصرت ذاكرتى بحثا عن دلالة هذه المدينة .. الآن فقط أستطيع ان أجد عندي بعض المعلومات .. فهذه المدينة كانت تابعة لمصر يوما ما .. فقد كانت العاصمة القديمة لاوغندا .. أما العاصمة الآن فهي كمبالا التى يعرفها عشاق كرة القدم .. فقد أجريت فيها مباريات كبرى بين مصر ودول الدورة الافريقية .. والجيوش المصرية أيام الخديو اسماعيل قد رفعت العلم المصرى على هذه المدينة وعلى غيرها .. ويوجد اثر للمصريين في أماكن مختلفة من البلاد ..

ويمكننى ان أفسر سبب الضحك الغريب الذى كان تعليقا على اسمى عندما سألتى أحد الجرسونات عن اسمى ، ونحن منهمكون فى صناعة الشاي ، فقال : آه : أمين باشا !

وسألته : كم عمرك ..

قال : سبعون عاما ..

وكان يبدو فى الأربعين .. وسيظل يبدو كذلك ما دام يضحك طول الوقت ويفعل همومه أولا بأول ..

وأمين باشا هذا الذى أضحكه .. هو أمين باشا محمد .. وهو الطبيب الالماني الذى عينه غوردون باشا حاكما على المحافضة الاستوائية بأمر الخديو اسماعيل يوم كان العلم المصرى يرفرف على هذه البلاد .. وأمين باشا هذا كان طبيبا ممتازا .. وكان يتقن عشر لغات ومشرات من اللهجات الافريقية .. وقد استغل فترة طويلة فى قصر السلطان بشركيا .. ولذلك اتخذ لنفسه هذا الاسم التركى .. وان كان لم يعنق الاسلام ، واسمه الحقيقى هو ادوارد اشتنسلر وقد أوفدته الحكومة الالمانية ليوسع حدودها الى ما وراء تنجانيقا التى كانت مستعمرة المانية .. وحاول كثيرا .. ولكنه سقط فى ايدي تجار الرقيق فقتلوه سنة ١٨٩٢ ، وكان فى الثانية والخمسين من عمره . ولم يترك كتابا عن مغامراته ، وان كانت بعض المجلات قد نشرت مقالات كثيرة يتحدث فيها عن هيامه بجمع النباتات النادرة والحيوانات الغريبة .. ويقال انه تزوج فتاة من مدينة عنتيب ..

ولم أشرح له اختلاط أوغنده وكينيا فى رأسى .. فلا أحد قاز لنا أين هبطنا .. وحدود أوغنده وكينيا متجاورة .. ولا أعرف ان وصف أوغنده بانها كينيا يبعث على الضحك .. ولكن ما دامو قد ضحكوا ، فلا بد ان هذا مضحك .. تماما كما تذهب الر سوهاج ونقول لهم : مش دى اسيوط !

ولا بد ان اهل اوغنده وجدوا فى جولى فرصة سعيدة لشعورهم بالتعالى على رجل ابيض جاهل .. ومن المؤكد اننى استعديته ورددت لهم اعتبارهم . ولو كنت أعرف اشياء اخرى تستعدهم لفعلت ، فان الشىء الذى قدموه قد انعشنى واستعدينى .. وشربت كوبا وراء كوب .. وفى كل مرة امتدح الشىء الانجليزى .. بل اننى تطوعت ودخلت البيوفيه وصنعت الشىء على الطريقة التى تعلمتها فى جزيرة سيلان .. ومن خبراء الشىء .. وما زلت حتى اليوم أسير هذه العادة ..

ولما سألتونى كيف تعلمت الشىء ..

وجدت الفرصة التى أحولها فيها الى نلامذه .. واسترد فيدي مكائتى كواحد لديه الكثير من المعرفة فى هذه الصناعة التى ياكلون منها العيش .. ولكنى تؤكد لهم ان الخلط بين كينيا واوغندا من الجور ممكن جدا .. وكثيرا ما اسقطت الطائرات فى الحرب قنابل على أهداف خاطئة .. قلت : تعلمتها فى شركات الشىء فى مدينة كولبو بسيلان .. وفى مقاطعة دار جيلنج فى الهند ..

ورويت لهم كيف ان احدى شركات الشىء فى سيلان قد طالب منى ان اعطيها عنوان عشرة من اصدقائى فى جميع أنحاء العالم لكنى يعنوا لهم ببدايا من الشىء الفاخر الذى لا يباع فى الاسواق .. واننى اعطيتهم عناوين عشرة من الاصدقاء .. واننى عندما عدت الى القاهرة وجدت الشركة قد أرسلت لكل واحد منها كيلو جرامين من الشىء الطسويل المعطر .. وقيل لى انه شراب الملكة اليزابيث المنفصل .. وكى كان حزنى عميقا .. وكى كانت فرحة ابتاء اوغنده هائلة .. عندما قلت لهم اننى نسيت ان اعطى للشركة عنوانى ! ..

ولكن هذه الشركة عندما علمت بهذا المقلب الذى اوفعت نفسى فيه أرسلت لى كمية اخرى من الشىء المعطر ..

ولا أعرف ما الذى منع هؤلاء الاوغنديين ان يطلبوا منى ان أعمل معهم فى البيوفيه .. ولا داعى للعودة الى القاهرة ..

وسألت الجرسون الذي أنتحكه اسمي : هل تعرف أمين أمين  
جيدا ..

أعدت عليه السؤال عندما لم ألاحظ ما يدل على معرفته ليد  
الرجل فقال : اذرفه .. أنا اسمي أمين باشا محمد .

قلت : مسلم ..

قال : أولادي فقط ..

قلت : وانت ؟ ..

قال : مسيحي ..

قلت : وتزوجتك ..

قال : مسيحية ..

قلت : وكيف حدث ذلك ؟

قال : يحدث هذا كثيرا ..

ولم أجد عنده تفسيراً .. ولكن يبدو أن هذا يحدث كثيراً ..  
أن يكون الأب مسيحياً وأولاده مسلمون . ويحدث كثيراً أن يحتضن  
الإنسان الذي من شرح له .. لا يجده .. وسكت دون أن  
يفهم ! ..

الحمد لله .. تربيت وأكلت وشحكت واضحكت .. ورحبنا بالليل  
سريعة ليصنع لي مشكلة جديدة : أن تنام !

وقبل أن نفكر في النوم يجب أن تدفع ثمن الشاي .. وبعين  
السدوتش والحلوى التي جاءت في حماية الشاي ويسببه ..

ونكرر الضحك بنفس القوة عندما أخرجت من جيبى بعض  
الفرنكات الكونغولية .. وحاولت أن أدفع .. وعرفت بسرعة أن  
هذه الفرنكات تشبه « بونات » بوقية محطة مصر .. وأنا أشبه  
من يأخذ هذه البونات ويعطيها لجرسون في محطة روما .. مضحكة  
.. وأنا مضحك ! ..

وكادت فرصه لأمين تأسف أن يمر على أن يكون الحمار  
عليه هو ..

وشكرنا أمين باتنا وتمنيانا له طول العمر والصحة وأن يقدر  
بيته عامراً ..

وقبل أن نفكر في أين نذهب .. على تفريج على المدينة .. أو هل  
ننام مبكراً في الطائرة .. وما دامت الظروف الكونغولية لا تنفع فم

الذي تفعله .. فتيسر لنا رجل انجليزي .. يبدو أنه من رجال  
المطار ..

وسألنا : من مصر ..

قلت : نعم !

قال : كم يوماً بقرن هنا ..

قلنا : حتى الصباح ..

قال : ما مشروعيانك ؟ ..

قلنا : أولاً نبحث عن مكان نقيم فيه ..

قال : ونالياً ؟ ..

قلنا : نتفرج على المدينة ..

قال هو في رفة جاده : اذن نبدأ بتالياً ؟ ..

ومتبيناً معه ووراءه دون أن يسأله من هو وما شأنه .. ولكن  
لم يكن من الصعب أن نعرف أنه أحد رجال السلطة جاء لمراقبتنا  
بصورة رقيقة . وأخذنا في سيارته . وذهبنا جميعاً إلى أحد محلات  
البقالة .. المحل عندي .. والبنودكيرون هنا وفي كل المستعمرات  
البريطانية الأخرى .. وعربنا حساباً .. وفي المحل قابلنا عدداً من  
المواطنين وسألونا عن لندن .. وماذا يصنع .. ومن الغريب أنهم  
سألونا عن بعض الصحف المصرية .. وبعض الكتاب المصريين ..  
وعن موضوعات محددة نسرتنا الصحف المصرية أنهم من طلبه  
الجامعة الأزهرية !

وانصرفنا .. في سيارة الضابط الإنجليزي .. واتجه بنا إلى  
أحد الفنادق .. وأوصلنا إلى باب الفندق .. وتأكد من دخولنا  
ومن وقوفنا أمام ساحة الفندق .. ومن أننا كتبنا استمارات  
الإقامة وسجلنا أسماءنا وأرقام جوازات السفر .. وودعنا الرجل  
وشكرناه .. ووعدنا بالعودة في الصباح كرائقنا إلى الطائرة ..

والفندق من طابقين .. وككل الفنادق الأسبوعية .. على  
بالأشجار .. وعلى النوافذ سائر من السلك ضد الحشرات  
والبعوض بصفة خاصة .. وفي كل غرفة جهاز تكييف .. وفي الطريق  
إلى غرفتنا مررنا بالمطعم .. ثم حبسنا أعيننا وانفاسنا عندما  
وجدنا المطعم مليئاً بالناس ولكن أحداً لا يسمع لهم صوتاً .. وهم  
جميعاً بالملابس الكاملة .. الرجال بالبدل والكرافته .. والسيدات  
بالسواريه .. ونحن قد ارتدنا عابثه « العفريته » .. والهدوء  
والدفء والانوار الناعمة والإطعمة السميبة والأكواب الزجاجية

الطويلة .. والالوان على الجدران والمقاعد والستائر والفساتين  
والليل والجوع والحرمان يحرك المعدة والقلب ويجعل النوم حرام  
على كل من عنده احساس او ذكريات ..

ولكن لا وقت للذكريات ..

ويظهر انه لا مفر من الذكريات المؤلمة على الاقل .. فعند  
تأمل وجه السيدة صاحبة الفندق .. كان الوجه مألوفاً ..  
لا اعرفها .. ولكن اعرف مثل هذه الملامح .. وسألتها : من اين

قالت : من القدس ..

قلت : العربية ؟

قالت : لا ..

قلت : .. وتكلمين العربية طبعاً ؟ ..

قالت : طبعاً ..

قلت : بايخة ! ..

ولم اقلها بصوت مرتفع .. فقد علق بعض الزملاء على ملامحها  
وعرفوها .. وعلى انفها وعلى شعرها المنكوش وعلى التكشيرة التي  
تزداد لحظة بعد لحظة .. وعلى انها نهت الى ضرورة التزام  
الهدوء .. الذي التزمناه بالفعل ! ..

وفي الغرفة وجد كل منا ما يحتاج اليه ..

وجدنا سلالاً من الفاكهة .. فاكهة نعرفها وفاكهة لا نعرفها ..  
وأهم من هذا كله وجدنا الدش .. وأهم من الدش وجدنا السرير  
.. وأهم من السرير وجدنا النوم ..

وكان الصباح جميلاً ..

كل شيء هادئ .. الغرفة نظيفة .. الالوان بيضاء السرير  
والغطاء .. والجدران .. والاكواب .. والالوان كلها خضراء  
ووردية .. ومن النافذة بدت الحديقة فاتنة .. الاشجار مليئة  
غنية الاوراق والثمار .. والطيور ترنارة ولكنها متنوعة ..  
والفندق يشرف على المدينة .. ويتوارى خلف الاشجار حتى  
لا يبدو مشرفاً بالفعل ! ..

ودق جرس التليفون في الغرفة .. ولم تمتد اليه يد .. فنحن  
لا نتوقع شيئاً ولا أحداً .. ونحن نعرف مقدماً ما سوف يحدث ..  
وان كنا نتمنى ان يحدث شيء يجعلنا نبقى هنا يوماً او يومين ..

وفي التليفون سمعت ان الضابط الانجليزي في انتظارنا .. انه  
ضابط امن نشيط .. انه يريد ان يطمئن على اننا سوف نساfer  
اليوم ، ولم يقل في التليفون انه يتعجل احداً .. وانما فقط يريد  
ان يقول لنا انه موجود ..

وكان في نية احد الحاضرين ان يسأل عن فول مدمس .. ولكنه  
تراجع عندما تذكر هذه السيدة صاحبة الفندق .. واكتفى بالشاي  
والبيض والزبدة واللبن ..

وفي هذا الجو الاستوائي فررت ان اتناول افطاراً من نوع خاص  
.. يذكرني بايام الهند وسيلان واندونيسيا .. فطلبت بيضا  
بالطماطم والفلفل الاخضر والاحمر .. وطلبت كوباً من عصير الطماطم  
بالشطة .. ثم طلبت شرائح من الاناناس .. وشرائح من البابايا ..  
وبعض البندق الهندي .. وكوبين من الشاي الانجليزي «المعبر»  
ولا يد من اضافة هذه الصفة لان لونه احمر ذهبي ورائحته  
كرائحة العنبر الوردى ..

ووجدت في هذا الافطار تعويضاً سخياً عن كل ما حدث في الاربعة  
والعشرين ساعة الماضية .. ورضيت عن التعويض ، واسترحت  
نفساً وجسماً .. وكان هذا واضحاً تماماً في مصافحتي للضابط  
الانجليزي الذي بدا اكثر انتعاشاً منا جميعاً .. وكان من الواجب  
ان اسأله كيف نام واين وماذا افطر صباحاً لعلنا نعرف سر هذه  
الحيوية والشباب واليقظة .. ولم اجد مبرراً لذلك فالذي اشعر  
به ارضائي واشبعني وامدني بقدرة على احتمال الطائرة حتى نعود  
الى القاهرة ..

ونقلتنا السيارة الى المطار .. والسيارة هي التي نقلتنا وليس  
الضابط .. فلم نشعر به .. لانه لم يتطرق بكلمة واحدة .. كأنه  
يتوقع ان نقول شيئاً .. أو كأنه يدخر قواه لينفقها في عمله ..  
أما نحن ففي الطريق الى عمله .. وعندما دخلت السيارة ارض  
الطار رأينا الطائرة .. وقد وقف مندبابها الخلفي ذلك العجوز ادوارد  
وواضح انه ينتظرنا .. تماماً كما يفتح بقال ريفي دكانه وينتظر  
الزبائن الذين لا يفتحون النفس الى العمل كأن ينسروا نقرش شاي  
ونقرشين سكر .. وأشياء تافهة أخرى ..

وصافحتي الضابط الانجليزي وشكرناه وتقبل منا الشكر الذي  
يتوقفه ويستحقه .. ايا كان السبب .. ودخلنا الطائرة واقفل  
الباب .. ودارت المحركات .. وأسندنا الظهر الدافئة الى الجدران

المداينة • ومددنا أقدامنا • ونعالت أصواتنا بالتصحك وبالكلام  
ولم ننفت إلى الكابتن أو العجوز ادوارد •• ولا نعرف كيف ار  
المسافة بين عنتيب والقاهرة كانت قصيرة الى هذه الدرجة رغم اننا  
استغرقت سبع ساعات ••

ومن النافذة رأينا القاهرة • وهبطت الطائرة • وعافحنا الكابتن  
وزميله والعجوز ادوارد • ونزنا في مكان بعيد من المطار • ولم  
يكن هناك أية سيارة تنقلنا من مكان الطائرة الى المطار •• وكانت  
المسافة طويلة ••

•• وفي وضع النهار ظهر الاعياء عينا •• وعن ملابسنا المتكسرة  
المدينة بالقع •• وعلى أحدثنا التي ناعجب بالطين •• ودخلنا  
المطار وسألونا : من اين ؟

قلت : من الكونغو •  
أما كيف خرجنا •• وكيف نزلنا وكيف سعدنا وكيف عدنا ••  
فالجواب : ان كل شيء تم بالليل وبسرعة •• بالليل هنا •• وبسرعة  
عناز •• حيث لا حكومة •• لا جيش ولا بوليس •• وحيث البلاد  
مفتوحة كالسماء •• لا احد يعرف الداخل ولا الخارج ولا احد  
يهمه احد ••

أما شهادة التطعيم والحقن فهي التي فتحت البواب الخارجى الى  
البيت •• بينما ظل بعض الزملاء فى الحجر الصحي أسبوعين  
آخرين •• فلم يتمكنوا من الحصول على شهادات دولية •• أي أنهم  
سافروا الى الكونغو وعادوا فى ثلاثة أيام •• ولكنهم لن يسافرو  
من مطار القاهرة الى القاهرة نفسها الا بعد ١٤ يوما !

وفى الطريق الى القاهرة سألتى أحد الزملاء : نفسك فى ايه دلوقت  
قلت بصراحة واخلاص •• نفسى أسافر الى الكونغو ••  
وكم سمع - نكته - بايخة قال الزميل : أنا حرمت أسافر  
معاز •• انت رحلاتك انتحارية !

ليست انتحارية •• ولكن أريد ان أعرف ان أفهم •• ولم يتسع  
وقسى لكى أفكر وأدير •• واتدير •• فكاننا ذهبنا الى زيارة اناس  
قد دخلوا العراش وشربوا عشرات من الحبوب المنومة بينما شربت  
عشرات من فناجين القهوة السادة استعدادا لهذا اللقاء والحوار ••  
وكل الذى دار بيننا هو اننا تجاذبنا الغطاء •• أنا اسحبه عنهم وهم  
يشدون •• وغلبنى التعب وغلبهم النوم ••  
••• ثم غلبنا جميعا !



كانت فوق الجميع ••

أصبحت تحت الجميع ••

•• وظلت عملاقا دائما !

صنع فى ألمانيا!

•• سهر الليل •• ليلاس ••  
[www.liilas.com/vb3](http://www.liilas.com/vb3)

أى شيء فوق العقل العادى .. أى شيء يعجز عنه أى إنسان عادى  
.. أو أى شعب عادى !

أما الذى فهمه هو - وهو أحد أحفاد الفلاسفة الألمان كانت وهيجل  
ونيتشه - فهو أن المعجزة معناها أن السماء هى التى تدخلت فى كل  
شيء ، وأن الشعب الألمانى لم يفعل أى شيء . وقد يكون من المعانى  
التي خطرت على باله أن الأمريكان - أى قوة خارجية بفلوسهم  
وصنانتهم - هم الذين أنقذوا الشعب الألمانى . .

والمعنى الأول لم يخطر لى على بال . . بينما المعنى الثانى وهو  
ممكن ، فلم يخطر لى أيضا على بال . وإنما الذى أحسست به هو  
هذا الفارق بين ألمانيا بخرائبها فى سنة ١٩٤٩ وألمانيا التى رايتها  
بعد ذلك فى سنة ١٩٦٧ . .

وهذا الموقف يضعنى فى المكان المناسب لنهم أوضح وأسلم للألمان  
.. فهم ماديون . مكتشون . . أو لكى أكون عادلا : أقول أن طريقهم  
فى الكلام والفكر والحياة مختلفة عنا . وليس من الضرورى أن يتفق  
العالم كله من أوله لآخره معنا لكى نفهمه - أو لكى أفهمه - على  
النحو الذى يريحنى ! . .

وهذا يجعل المسافر الى ألمانيا أو الذى يعيش فيها أن يسأل نفسه  
من هم هؤلاء الناس ؟ ماهو تعريف المواطن الألمانى . ربما كان معناه :  
النظام والطاعة والهمجية والقسوة والطاقة على العمل والصبر  
والغلظة وحب الموسيقى وحب الحيوانات والإندفاع والغموض . .

وإذا قارنت الألمانى بالفرنسى وجدت هذا الاختلاف الهائل بين  
شعبين تجاوزا مئات السنين . . ولكن ما تزال المسافة بينهما أبعد  
بزمان جدا مما بين باريس وبون . . فالرجل الفرنسى - من وجهة  
نظر الألمان - : مهمل فى مظهره ولكنه ذكى . . لاصبر له على العمل  
ولكن إذا عمل كان فى غاية الكفاءة . . ولديه قدرة عقلية فذة . .  
وصحيح أن الفرنسى ليس عاطفيا كالألمانى ، ولكنه عاشق من  
الدرجة الأولى !

أما رأى الفرنسى فى نفسه فهو أنه اسمى وأكثر إنسانية ، ولكنه  
ينظر بحسرة الى الإنجازات العظيمة التى حققها الألمان فى  
كل العصور !

تصادف أن ذهبت الى مدينة ميونخ من عشرين عاما ، وكانت هذه



## أكبر غلطة لغوية !

كان ذلك فى الحفلة التى أقامها مصدرى الأرز فى مدينة همبورج  
.. جاء دورى فى الكلام . فقلت : اننى قد رايت ألمانيا ١٥  
مرة . . وفى كل مرة أجد تغيرا عجيبا . . الشوارع المنهار  
المظلمة تحولت الى فترينات باهرة . . والعمارات كأنها اختفت تحس  
الأرض بسبب الفارات الجوية . . ثم أعيدت الى وجه الأرض . .  
أن الألمان يطبقون شعار دافنشى الذى قال : اننى لا أصنع التماثيل  
اننى أكشف عنها الحجر فقط . . انها معجزة ؟  
وواضح من الذى قلته اننى معجب بالعقريّة الصناعية  
والمعمارية الألمانية . .

ولكن الألمان لم يفهموا هذا المعنى الذى قصدته . . فقد نهض  
واحد منهم غاضبا ساخطا ليقول : انها ليست معجزة ياسيدى . .  
إن المتدليل الذى كنت أسمح به عينى كنت أسمح به أنفى أيضا . .  
اننى حملت ابنى وزوجتى على ظهرى من برلين حتى وصلت الى  
هذه المدينة . .

وجلس . . ولم أفهم شيئا . .

وانتهت الحفلة . ولم أتمكن من أن استوضحه . . ولا أعرف  
أين المكان الذى أوجعته من جسمه أو من نفسه . . اننى لم أتعرض  
الى فساد أو ظهره . . ولم أقل أنه كالحصان يستطيع أن يجر عربة  
.. وأن يحمل زوجته وابنته على قفاه . . ولم أقل أنه من الواجب  
أن يفعل الإنسان ذلك . .

وسألت عن سبب غضب هذا الرجل من إعجابى بالشعب الألمانى  
ونشاطه القريب . وكان الاعتراض على استخدامى لكلمة « معجزة » .  
أنا استخدمت الكلمة بحسن نية . . وهو قد فهم شيئا آخر . . أما  
المعنى الذى أقصده فإن الذى حدث فى ألمانيا شيء لا يصدق العقل . .

اول زيارة لمانيا .. وكانت المدينة ماتزال محطمة .. ولكن ظهرت  
العمارات الجديدة والشوارع المضيئة .. تم كانت هناك محطة  
السكك الحديدية الفخمة .. ووجدت غرفة في بنسيون اسمه :  
بنسيون « الشاعر جيته » .. وأعجبتى الاسم . ولم تكن هناك أية  
صلة بين اسم الشاعر والبنسيون .. تماما كما لا توجد أية صلة بين  
لوكاندة البرلمان عندنا والبرلمان ..

والبنسيون متواضع . ولكن من المؤكد انه نظيف ..

وعرفت في أول ساعة من دخولي البنسيون أنه لا توجد حنفيات  
للحمام .. فالعمارات منهاره .. ولم يتم بعد اصلاح وابور الماء ..  
اذن لابد ان اغسل وجهي في الطشت .. فهناك طشت وابريق .  
وصاحبة البنسيون في انتظار اشارة مني .. وجاءت وغسلت وجهي  
.. وغسلت قدمي .. وشكرتها .. ولم تعتذر عن الطشت والابريق  
.. فمفروض ان عندي نظرا .. فالبلد مهدمة .. وهذا هو  
احسن ما تستطيع ..

وكان يسكن في غرفة مجاورة شاب فرنسي . واثناء الافطار تعارفنا  
وتحدثنا .. وصارحتي بالسبب الحقيقي الذي جعله يرفض استخدام  
الطشت والابريق .. فقال : اننا تجاوزنا هذه المرحلة من  
مئات السنين ..

ولم افهم . وسألته : ماذا تقصد ؟

فقال : ان منظر الطشت يجعلنى اعود الى أيام الامبراطور نابليون  
الثالث .. وتلك أيام لا احبها !

بعبارة اخرى لا يعجبه الطشت والابريق ..

وانا لا يعجبني ولكن ما الذي يمكن ان اصنعه .. ان البنسيون على قدر  
فلوسى وفلوسه ايضا . ثم ان الناس هنا معدورون في ذلك الوقت ..  
ثم انهم لا يقلون حضارة عن الفرنسيين .. ولكنه فرنسى يعيش  
في المانيا !

ولا هو احب البنسيون ولا صاحبة البنسيون احبت هذا الشباب  
.. ولا كل الفرنسيين !

وعندما سقطت المانيا سنة ١٩٤٥ فوجيء المارشال الالماني كايتل  
اثناء توقيع التسليم بلا قيد ولا شرط بأن مندوبا لفرنسا جاء يوقع  
على التسليم .. فقال :

وفرنسا ايضا ؟

بفصد وفرنسا التي هزمتها الالمان سنة ١٩٤٠ فانتهت كدولة كبرى  
.. ان هذا الموقف المهين لمانيا ، لم ينسه الالمان .. ولم ينسه  
الفرنسيون ايضا !

ولم تستطع السيدة صاحبة البنسيون ان تخفى شعورها ..  
فاشارت الى ذلك ..

وكان ذلك منذ وقت طويل .. ولكن الالمان الآن قد نسوا .. او  
حاولوا نسيان ذلك ..

فيالمانيا تغيرت معالمها ..

نهضت المدن والمصانع والشوارع . وامسلات المحلات التجارية  
وانتقل العمال الى المانيا من كل الدول الاوروبية .. فالالمان عندهم  
كثير من الرؤوس وعدد قليل من الايدي .. فعندهم المهندسون  
والاسطوانات والعمال المهرة ولكن ينقصهم العمال فقط .. الايدي  
فقط ..

ويظهر ان الالمان احسوا بأن جيل ما بعد الحرب ليس صلبا ولا  
تماسكا كما يجب ، لذلك اضافوا الى كل مصنع « مدرسة للتاهيل  
المهني » .. واستخدموا فيها اساليب التدريب العنيف .. وبعض  
المدارس لجأت الى الضرب ..

اذكر انى حضرت احدى ولائم الغداء في مصانع شركة «ديماج» .  
وقد حضر عدد كبير من الخبراء والاداريين .. وعدد من الشبان  
المصريين الذين يتدربون على العمل هناك . سألت جارى : وكيف  
حال الشبان المصريين ؟

فاشار الى مهندس المانى آخر وطلب اليه ان يجيب . وهذه الحركة  
مألوفة في المانيا .. فكل واحد يتحدث في اختصاصه .. مهما كان  
هذا الاختصاص تافها . ونهض المهندس المشار اليه وقال : بصراحة  
انا لا احب هذا النوع من الشبان ..

بقصد الشبان المصريين .. وقال : انهم اكثر اهتماما بالفتيات  
الالمان .. انا نشكر لهم هذا الاهتمام ولكن بشرط ان يكون في اوقات  
فراغهم .. انا لا افهم ما معنى ان يحمل كل واحد منهم صورتهافي  
جيبه او يضعها امامه في الورشة .. !

واحمرت وجوه الالمان . واحسست ان شيئا غريبا قد حدث او



سوف يحدث .. وان هذا المهندس الالماني قد أخرجهم .. وان  
ليس من اللائق أن يصارحنى حتى بكل الحقيقة ..

ونار همس وتجاوزت رؤوس .. وسمعت المهندس الكبير يقول  
اننى صريح .. أنا رجل عسكري .. ولا أحب الميوعة فى الشبان ..  
من أى بلد !

وسمعت أن هذا الرجل قد وجد شيئا يرضع اللبان فأخرجني  
من فمه بالقوة وعاقبه ..

ولابد أن مثل هذه التربية الشديدة هى التى أقامت ألمانيا على  
قدميها .. عملاقا صناعيا غنيا من حديد وطفلا ذليلا فى وزار  
الخارجية الامريكية .. ولا بد ان هذه الذلة هى التى جعلت الماني  
تقف الى جوار اسرائيل .. فى تسليحها وتمويلها .. وفقدت  
بذلك أرضا وملايين العرب من الذين كانوا يعجبون بالصناعة  
الالمانية قبل الحرب العالمية الثانية .. وكان يكفى أن يجد المواطن  
العربى عبارة : صنع فى ألمانيا .. ليشتري ودون تفكير ..

وعلى الرغم من أن المصانع الالمانية الكبرى قد فككت بعد الحرب  
وأرسلت الى دول الاحتلال الرابع .. ومسحت الارض قبل ذلك  
بالتقنابل ، وتسل عشرة ملايين شاب ألماني ، فان هذه المصانع أعيدت  
من جديد .. وحولها البيوت .. والمعاهد والمدارس والمتاجر ..  
وأصبح الالماني مثل أغنياء الحرب - فهم يقضون الصيف فى إيطاليا  
وفى أسبانيا وفى اليونان .. ثم هم بعد ذلك يستثمرون أموالهم  
فى كل مكان فى العالم .. بل انهم أقرضوا أمريكا وبريطانيا  
ملايين الجنيهات الذهبية !

وهذا الوضع يضاعف من تعقيد الشخصية الالمانية ومن تناقضه

بل أن هناك أكثر من ألمانيا ..

فهناك ألمانيا الشرق .. وألمانيا الغرب ..

وهناك النمسا التى تتحدث الالمانية ..

وسويسرا التى تتحدث الالمانية ..

وكانت هناك دائما أقليات ألمانية فى معظم الدول الأوربية ..

فى تشيكوسلوفاكيا .. والجر وبولندا .. وكانت هناك مدينت  
دانزج الحرة ..

وألمانيا نفسها دولة مفتوحة الحدود .. انتصرت وانهزمت ..  
احتلت بلادا واحتلتها بلاد .. وحطمت وتحطمت .. فى كل  
لحروب الأوربية .. فهى مصدر كل هذه القلاقل ..

وذلك فالألمان هم الشعب الملعون فى كل أوروبا ..  
والناس ينظرون الى الالماني فى البلاد المجاورة على أنهم أناس  
شوحسون ..

أذكر اننى كنت فى أحد المحلات التجارية فى مدينة انسبروك  
النمسا . ولاحظت أن البائعات يتغامزن . وعندما نظرت أستوضح  
اقتربت منى بائعة وقالت : انهم ألمان !

قائليا بشئ من الضيق ..

ولكن الالماني هم نصف تاريخ الموسيقى فى العالم كله .. فهم  
أحفاد فاجنر وباج وبيتهوفن وشوبرت وشوبان واشتراوس  
وموتسارت ..

ولكن الالماني لم يتفوقوا فى الغناء والاوربات ..

ولم يتفوقوا فى الرسم ولا النحت ..

وعنالك مثل يقول أن الانسان يتعثر فى الفلاسفة والموسيقيين  
فى الغابات والوديان الالمانية ..

والفلاسفة الالماني من كل الأنواع : مثاليون جدا مثل : هيجل  
وفخته .. ماديون جدا مثل : ماركس وانجلز .. وأنصار حياة  
ثقل : نيتشة .. وأنصار موت مثل : هايدجر ..

بل اننى وجدت فى مدينة لينجن بيتا صغيرا متواضعا جدا على  
نهر يتصح فى الاحجار .. فى هذا البيت أقام ثلاثة من عباقرة  
ألمانيا هم : هيجل وفوبرباخ والشاعر هيلدرلن .. وكان الثلاثة  
فقراء .. وكانوا يقتسمون هذه الغرفة الصغيرة التى تحولت  
الى متحف ..

وفى هذه الغرفة عاش الشاعر الالماني هيلدرلن أربعين سنة ..  
وبعدا انتقل الى مستشفى الامراض العقلية ليعيش أربعين سنة  
أخرى ..

الإصابة عنده .. فما زالت هذه السماعات تكبر وتكبر حتى أصبحت في حجم يوف الفونوغراف القديم .. أو حجم قمع الجاز الذي يستخدم في دكاكين البقالة في الريف ..

وبيت بتهوفن احسن حالا من بيت الموسيقار موتسارت في مدينة سالزبورج بالنمسا . فهذا البيت قائم في السوق .. والسلم ضيق .. والعرف مظلمة وضيقة أيضا .. وكل شيء في البيت الصغير .. اى على مقياس موتسارت .. فقد ظهرت عبقريته وهو طفل .. وكل شيء في البيت يؤكد هذا المعنى : الطفولة العبقريّة ..

والثلاثة مختلفون في تفكيرهم .. هيجل رجل مثالي يؤمن بالروح المطلقة وبالامبراطور والدولة .. وكل ما هو مجرد .. وفويرباخ رجل ملحد مادي عملي .. لا يطبق هذه التجريدات الفارغة .. أما هيلدزلن فهو عميد الشعراء الالمان وتبهم أيضا ..

وعذا الشاعر عاش محروما من كل أوليات الحياة المادية والاجتماعية .. ولم يكن يستطيع أن يلمس أصابع فتاة إلا بصعوبة .. فقد كان عليه أن يعطى دروسا لاحدى الفتيات لكي يلمس يديها فقط .. ولما أحس أن الفتاة تنظر اليه بشيء من الاشفاق - هي غنية وهو مدرس فقير .. ولم يكن احد يعرف أنه سوف يصبح عبقريا مجنوننا بعد ذلك - قرر أن يأوى الى فراشا وأن يكتفى بهذا الشعور من جانب الفتاة .. هي حسنة النية وهي لا يطيق أن يكون مشيرا للمشفقة !

وعندما ذهبت الى بيت الشاعر هيلدزلن كان الباب معلقا . خبطت على الباب . فتحت سيدة تسألني ما الذي أريده . وواضح من شكلي أنني لا أريد شيئا منها . وانما أريد أن أرى فقط أير كان ينام ويحاول الانتحار هذا المسكين العظيم .. وهو مسكين مرء أخرى لان هذه السيدة قد اشترت البيت الذي كان يسكنه الشاعر .. وفتحت السيدة الباب واقفلته ورائي . ولم تقل لي كلمة واحدة . وانما أشارت بيدها الى الغرفة الصغيرة النظيفة . وهي غرفة طالت بها سرير ومكتب . ولا يوجد بها كتاب واحد ..



وهذه الغرفة لا يمكن مقارنتها بالبيت الذي كان يسكنه الشاعر جينه في مدينة فرانكفورت . فهو بيت امير الشعراء الالمان ووزير المعارف في حكومة فيمار .. وهو حكيم الشعراء وفيلسوفهم ..

وهذا البيت لا يشبه ايضا بيت الموسيقار بتهوفن في مدينة بون .. فالبيت كله من اوله لآخره قد خصص للموسيقار .. وكان الموسيقار يقيم في بعض الغرف الضيقة في الطابق الثاني .. فما تزال هناك بعض الحلل والأواني .. وخصلة من شعره . ومخطوطات بقلمه .. وتوجد هناك « السماعات » النحاسية التي كان يضعها على أذنه عندما أصيب في أذنه .. وهذه السماعات تسجل تطور

:: سمر الليل :: ليلاس ::  
[www.liilas.com/vb3](http://www.liilas.com/vb3)



## صنعت في أمريكا: الجليظة!

التغيرات التي لم تعجبنى في ألمانيا - هذا مجرد رأى سالح يريد أن يرى ما يعجبه - وطبعاً ليس لدى ألمانيا أى استعداد أن تفعل ما يعجبنى ومن أجل عشرين أو ثلاثين جنيهاً أنفقها في ألمانيا كل سنة - لقد تحولت مطاعمها وحاناتها ذات الطابع الألماني القديم الى قاعات أمريكانية ..

وأنا أذكر أنني عندما ذهبت الى « حانة ميونخ » الشهيرة بأن هتلر كان يعقد اجتماعات النازي فيها ، كانت المناضد طويلة كبيرة .. وكنا نحن الزبائن نجلس متجاورين .. متشاكين أيضاً رغم أننا لا يعرف بعضنا البعض .. ناذا جاءت الجرسونة الضخمة والفت بالأكواب والاطباق واللحوم على الموائد الطويلة امتدت الايدي وتشاركت وتشابكت .. وامتز الناس يمينا وشمالا .. ومع الاهتزاز تلتقى الاجسام والخدود والشفاه .. شفاه غريبة .. ولكنها تتعارف بلغة عالمية .. وتختفى الوجود في عنقاق كله ابتسامة وسعادة .. والموسيقى تعزف أمانا لا يعرفها السائح الغريب .. وكما يفعل الألمان كنا نفعل .. يقفون على المناضد .. نقف ، يغنون .. نغنى ، يرقصون .. نرقص .. الأذرع ممدودة والشفاه جاهزة .. والابتسامات حاضرة والضحك أعلى من الموسيقى .. ولا احد يعرف أحدا .

وعندما جاء قائد الأوركسترا واختارنى من بين كل الواقفين على المناضد صفق لى كل من فى قاعة ميونخ .. وسرت وراء المايسترو الى المنصة .. والموسيقى كلها تتقدمنى .. تم اعطانى عصا القيادة .. وصفق الحاضرون .. وانحنى المايسترو بعد أن نرك لى زمام الموسيقى .. وعلى الرغم من انها نكتة .. لكن احساسى بأننى

عينت مايسترو وبلا مؤعلات ولا معدمات وفى بلد الموسيقى .. وكأننى بطة أقيت فى الماء بدأت أبليط بيدي .. والفرقة الموسيقية تعزف أمانا جميلة .. وراحت العصا فى يدي تعلق وتهبط .. وأنا فى دهشة كيف أن العصا تعرف كل هذه الألحان التي لا أعرفها .. وانتهت الفرقة الموسيقية من العزف .. وتقدم المايسترو واعطيت العصا .. وشكره .. وذهبت الى مكاني فوق المناضد الطويلة .. ولم ألتفت كثيراً الى التصفيق على الجانبين فلا بد أنه كان للعصا .. أو للشجاعة الغريبة التي اكتشفتها فى نفسى .. ولاحظت أن الجهلاء أشجع من العلماء ..

وعندما نزلت من مكاني فوق المناضد ووجدت المايسترو وقد خلع قبعته وانحنى ولاحظت أن الجميع يلقون بالفلوس فيها .. هه .. بهمت .. ومددت يدي فى جيبي وأخرجت ما به ووضعته فى القبعة .. لا أعرف بالضبط كم دفعت ..

ولكن قبل أن أترك حانة ميونخ هذه تبينت بوضوح جداً أنني يجب أن أذهب الى السجن وأسلم نفسى فقد أعطيت المايسترو كل ما معى من فلوس .. وليس عندي ما ادفعه للباكسي أو الفندق .. وأعود على نفسى أن أدخل السجن من أن أذهب الى المايسترو ..

وقبل أن أكمل هذه الجملة سألتنى فتاة - الله يخليها ويطول عمرها - ان كنت أريد أن أسترد بعض أموالى من المايسترو .. فهزرت كل جسمى واهتز رأسى ضمناً بما معناه : نعم .. الله يسترك .. !

وذهبتنا معاً الى المايسترو .. وابنسم وكأنه اعتاد هذا الموقف واعطانى العشرين جنيهاً .. وتركت له جنيهاً وشكرته .. وشكرنى أكثر !

ولما رأيت هذه الحانة بعد ذلك وجدتها تغيرت .. تبدلت .. قصدت .. أصبحت كاية قاعة فى فندق كبير .. المناضد صفت متعزلة .. والناس قد ارتدوا الملابس السوداء النشأة - يخص ! والسقف قد امتلأ بالنجف - يخص .. والفرقة الموسيقية التي قادتها يوماً ما قد وقفت هناك بعيداً وفى غاية الاناقة والشيابة .. والفرق واضح الآن بين الحانة زمان والحانة الآن .. انه كالفرق بين بيت العيلة والشقق الصغيرة فى العمارات الجديدة .. بيت العيلة هيصة وكل الناس يعرفون كل الناس .. أو من

السهل أن يتعارفوا .. أما هذه الشفق الصغيرة فكل واحد وافل  
بابه على نفسه .. ولا شأن له بغيره .. فهذه المناضد الصغيرة هي  
جزر معزولة في بحار من النظافة والبرودة .. واختفى الفالس وظهر  
الروك أندول والتويست والجرك - يخص ..

ولم تعجبني أيضا من الالمان هذه الوفاحة الامريكية .. قلت  
تجد الرجل طويلا عريضا يوضع اللبانة وينقلها من اليمين الى  
اليسار .. انه حتى لا يفعل ما يفعله أبناء اليمين عندما يمشون  
القات ويمتصونه فيتركونه متكوما في جانب الفم ولا يحركونه  
بمينا وشمالا بشكل يفرعك فتظن أن الحركة القادمة سوف تصيبك  
في وجهك ..

وعندما ذهبت الى صديق صحفى استقبلنى بحرارة .. وأجلسنى  
بالضبط في مواجهة حدائه الذى وضع على المكتب .. وكان اذا أراد  
أن يتأكد من شيء قاءه أو قلته انما يفتح ما بين قدميه وينظر الى  
من هذا الاطار الجلدى .. وكنت اعرف صورتي في عينيه لاني ارى  
صورته بين الجزمتين .. انها تتسع وتضيق .. وكان في نيتي أن  
أسأله ان كان في الاستطاعة أن أضيع رجلى على المكتب مثله تماما ..  
ونو وافق لترددت لاني اريد ان اعرف ما الذى ينصحنى به في  
حكاية الامبراطورة ثريا .. فقد كان يضع في فمه سيجارا ضخما ..  
والآن تستطيع ان تتصور الصعوبة التى أعانيها لكى أفهم منه أى  
شيء .. صوته هامس .. والسيجار يمتص بعض الحروف .. وما  
يبقى من حروف يساقط في المرحلة الأولى بين السيجار وانفتاح  
الجزمتين .. ثم بين الجزمتين .. ثم في المرحلة الاخيرة عند أذنى  
التي لطشها الهواء البارد فوضعت فيها قطعة من القطن ..

وكان المفروض أن أسيد طلاق الامبراطورة ثريا .. فقد تقرر  
أن يعلن طلاقها من الامبراطور في وقت واحد في طهران وفي  
كوتونيا حيث السفارة الايرانية .. وكان من رايه أن اذهب الى  
السفارة وليكن ما يكون .. وذهبت الى السفارة وانطلقت خراطيم  
المياه ومن وزانها الكلاب وتعلق الصحفيون بالسيارات وبفروع  
الشجر .. ورأيت ثريا بفسطانها الاسود .. يبدو أن ثريا قد  
اختارت لون النهار والليل أيضا .. فقد كان النهار اسود والليل  
كذلك .. فلم أفصح في أن أراها عن قرب أو أتحدث اليها ..

ونصحنى الصديق صاحب الجزمة اياها ان اذهب معه الى صديقة

له تعمل في الصالون الذى تتردد عليه ثريا .. وذهب .. وتهاصبا  
وتلامسا .. وتعانقا .. ولم أكن في حاجة الى أن أسأل عما اتفقنا  
عليه .. وفي اليوم التالي كان معى نسخة مكتوبة من الحسد  
التيفونى بين ثريا والامبراطور .. وعلى جانبي الخط كلمات  
باروحي .. يا حبيب قلبى .. يا حبيبة قلبى - الله امال انطلقوا  
ليه ؟!

هذه العبارة الاخيرة لم يقلها أحد .. انا الذى قلتها .. وأظن أن  
الحق معى .. وتم الطلاق الامبراطورى ..

وبدأت اطارد الامبراطور .. هي في سيارتها وانا في القطار ..  
وكانت مطاردة مضحكة .. تماما كما اطارد تعبانا في اواسط  
أقربقيا وأنا ما أزال في القاهرة .. كل ما أعمله هو أن أتجه فقط  
.. الى مكان الشعبان .. ولكن من المستحيل أن أصل اليه ..

ودعانى الصديق الصحفى أن امر عليه فى البيت .. وذهبت  
ووجدته يتناول غداءه .. ولم يقل لى تفضل .. لا قول له : شكرا  
.. سيقتك .. مع اننى لم أكن قد دقت أى طعام .. ولكن أمام  
تدائه لا بد ان اتخذ من هذا الرفض .. ولم يعجبني هذا الموقف  
لانه لم يمكنى أن أرفضه ..

ومن هذه التصرفات الصغيرة كثيرة .. وكلها تدل على أن الالمان  
قد تعبوا من النظام الدقيق فى كل شيء .. وبدأوا يخففون القيود  
.. أى بدأوا يهونون الامر على أنفسهم ..

وإذا كان فى المانيا شيء من الانحلال .. فهذه علامات العصر  
الحديث .. فى أوروبا كلها .. ولم يخل عصر من العصور ولا دولة من  
وجود انحلال .. أو ضعف جسمى أو نفسى .. فالضعف صفة من  
صفات الكائنات الحية .. والدول كائنات حية .. أو تتكون من  
ملايين الكائنات الحية التى جعلتها الحرب الاخيرة تكفر بالقيم  
والمبادئ .. لانها ضحايا المبادئ العتيقة .. ولا بد أن تستسلم  
لحالة تستريح فيها من المبادئ .. أى تكون فى حالة اجازة طويلة  
من المبادئ الاخلاقية والاجتماعية .. فى حالة تمرد على الاوضاع ..  
على المجتمع .. على النفس .. ولكنها بعد ذلك تعاود الوقوف فى  
الطابور .. والمتى على الخط .. والاتجاه الى المصانع والمكاتب  
والالات والمراسم والمعابد .. ولا يمكن أن يكون هذا التطور الهائل  
فى كل ميدان من مبادئ الفكر والعمل فى المانيا مجرد صدفة ..

فى الكتب المدرسية نجد الحياة فى اسرائيل مقررة على الطلبة ..  
ونجد الحياة فى المستعمرات اليهودية من ضمن موضوعات  
الانشاء .. كما ان دور النشر اليهودية أعادت كتابة التاريخ وأظهرت  
الامان امام أنفسهم وحوشا وسفاحين .. ان خطيئة هتلر يجب  
ان تظل خطيئة الى الابد .. وان الامان يجب ان يعرضوا كل يهودى  
عن كل ما فقدته .. فهم يطلبون تعويضات عن الاب والابن والبيت  
والسيارة والكلب والمصنع والمعبد والمكتبة .. وكل هذه الاموال  
ذهبت وتذهب الى اقامة اسرائيل ..

كنت فى المانيا سنة ١٩٥٧ عندما تشاجر احد المدرسين الالمان  
مع رجل يهودى فى حانة وقال له : ان غلطة هتلر الوحيدة أنه لم  
يقتل من اليهود عددا كافيا !

وقامت الصحف وقعدت .. وأثيرت هذه القضية فى البرلمان .  
ولعبت أجهزة الاعلام بأعصاب هذا الرجل وأعصاب الالمان . وأدعت  
الصحف أن هذا المدرس قد تلقى وعدا خاصا من جمال عبد الناصر  
بان يعينه مدرسا للغة الالمانية فى مصر - يعنى هذا الرجل على  
اتصال بعداء اسرائيل ، أى بمصر .. ومعنى ذلك أنه اضطر الى  
هذا الموقف .. أى أن الالمان لا يفعلون ذلك عادة ، الا بتحريض  
أجنبى

وحوكم المدرس وسجن !

وارشيف وزارة الخارجية الالمانية يفتح وينقل حسب الطلب .  
واليهود مسيطرون على وزارة الخارجية وعلى السياسة الخارجية  
لالمانيا الغربية لانها دولة محتلمين الامريكان .. وبين الحين والحين  
تظهر علامات النازية على الجدران والمعابد .. والحزب النازى الجديد  
عندما انتصر فى بعض الولايات الالمانية انزعج الالمان . والصحف  
الامريكية . ورأوا فى ذلك بعثا وانتعاشا للعداء ضد السامية - أى  
ضد اليهود ..

واليهود - كما هى العادة - يتولون مهمة افساد الشباب فى  
العالم .. وفى المانيا بديرون بيوت الدعارة والكباريات ونشر  
الاباحية الجنسية والمخدرات . ومعظم الكباريات فى المانيا يديرها  
يهود . وفى برلين وحدها يمكث شاب يهودى اربعة كباريات ..  
منها « عدن » .. و « جنة عدن » .. وهى أماكن لتجارة النساء  
من كل لون !

أو مجرد أنهم كئسوا الشوارع من انقراض الحرب فانكشفت هذه  
المصانع والمعاهد والحدائق والفنادق والكباريات .. انها « المعجزة »  
- أى حتى لاخطئ مرة أخرى - أنه المجهود العبقري الذى قام به  
الانسان فى مواجهة الدمار والخراب والهوان والاحتلال .. والقدرة  
الابداعية فى العلم ..

والامان يعرفون هذا التفوق فى أنفسهم . ويعتزون بذلك .  
ففى المعرض الدولى الذى أقيم فى بروكسل سنة ١٩٥٧ أقامت  
المانيا جناحا . وأهم معالم الجناح لوحة وضعت الى جوار المدخل ،  
دون أن يلفتوا اليها العين .. كأنها شئ عادى .. أو كأنها مجرد  
لوحة عليها أسماء .. هذه اللوحة عليها أسماء الالمان الذين فازوا  
بجائزة نوبل .. وعدد الفائزين : ٣ فى السلام و٧ فى الادب و١٠  
فى الطب و١٥ فى الطبيعة و٢٢ فى الكيمياء !!

( عدد الفائزين بهذه الجائزة فى القارات : آسيا وافريقيا  
واستراليا : رجلان اديبان .. أحدهما هندى هو طاغور .. والثانى  
يابانى اسمه كاوابا . وليس هذا كثيرا على الالمان .. ولكنه قليل  
جدا علينا .. أى على حوالى ألفى مليون نسمة ! )

ويبدو أن الالمان أيضا ينهبون الى المعامل والمصانع بنفس  
الحماس الذى ينهبون به الى الثكنات .. ربما كانت الثكنات هى  
التي دفعت الالمان الى المصانع والى اثاره الحروب تماما كاثارة  
النظريات الجديدة فى كل العلوم ..

فالالمانى يحب النظام والطاير وعنده صبر عظيم .. وهذه المزايا  
تجعله عالما ، وتجعله جنديا .. وتجعله بارزا فى العلوم وصارما  
فى القتال ..

والمانيا الان محتلة فى الشرق وفى الغرب حتى لا ينهض لها جيش  
وحتى لا تكتوى أوروبا مرة أخرى باندفاعاتها المجنونة .. ولذلك  
تسربت قواها الشابية وقدراتها الهائلة الى الانتاج .. الى البناء ..

ويتولى « ترويض » الشعب الالمانى : الامريكان .. ويتولى  
ترويض الامريكان على ترويض الالمان أغنياء اليهود ..

فليس أسهل من أن تلاحظ أن اليهود عادوا الى المانيا بكل قوة  
وكل مرارة . وانهم بدأوا يضطفون على الالمان ليكفروا عن خطيئة طرد  
هتلر لهم من كل مكان .. وتعذيبهم واحراقهم بالالوف - واليهود  
يقولون بالملايين وهم كذابون طبعاً -



الذين ولدوا ليعيشوا :

أى ليشربوا ويرقصوا

وليغنوا معظم الوقت !

أما معسكرات الاعتقال فقد رأيت منها معسكر داخاؤ .. المعسكر واسع محاط بالاسلاك العالية .. وحول المعسكر توجد قنوات المياه التي تفصل الاسلاك العالية عن داخل المعسكر .. وفي داخله غرف الغاز التي كان يوضع فيها اليهود وغيرهم من أعداء النازية من الالمان المسيحيين .. ويوجد معرض للصور .. صور المعتقلين وهم متجهون الى المحارق .. وصور للخطابات والمنشورات وأوامر الاعتقال .. والزوار قد مدوا أيديهم ليفقأوا كل صور لهتلر .. وتوجد مقابر لرماد الضحايا ..

والارض في المعسكر مقروشة بالفحم الاسود .. ليشعر الزائر أن كل شيء نار ورماد .. وهنا معبد يهودى .. ويقابله كنيسة ..

وكل يوم يضاف الى هذا المعسكر جناح جديد .. وصور وملفات ودوسيهات من كل معسكرات الاعتقال الأخرى .. والمعسكر واسع شاسع ومفتوح لكل الزوار من كل مكان .. وزيارته واجبة على كل تلبة المدارس ورياض الاطفال .. حتى يشعر كل المانى ان اجداده مجرسون .. وحتى يشعر كل سائح أنه يزور بلادا من السفاحين ..

وإذا حاولت أن تستوضح أحدا من الالمان قال لك : نحن بلاد ممزقة ومحتلة .. والامر ليس بيدنا ولكنه بيد غيرنا .. وغيرهم هم الأمريكان .. واليهود !

ولكنها بلاد رائعة يسكنها شعب مروع ! ..

إيطاليا.. لامرّة العشرين



## صوفيا وأخواتها



عشرين عاما نشرت الصحف اننى مسافر على « ظهر »  
الباخرة اسبيريا الى أوروبا ..

ولم يضحك أحد لنشر هذا الخبر . فهو خبر عادى ..  
فمن الممكن أن اسافر أنا أو غيرى الى أوروبا وعلى ظهور البواخر أو  
الطائرات . ولكنى ضحكت لاننى سافرت على ظهر الباخرة فعلا  
وليس مجازا .. وتحولت الباخرة الى حصان أو حمارة أو عربة كارو  
تحمل جوانات من الشعر وأنا راكب فوقها . فلم يكن سفرى بالباخرة  
على أية درجة : لاولى ولا ثانية ولا ثالثة .. وانما على ظهرها .. فمذ  
صعدت الى الباخرة من ميناء الاسكندرية وأنا على ظهر الباخرة ..  
ولم يكن الليل قد جاء لافكر فى مسألة النوم وكيف وأين .. ولكن  
انحصر تفكيرى فى أين أضع حقيبتي دون أن افقدها .. وعندما  
فحصت وجوه الناس لم أجد أحدا أعرفه .. ولا حتى كان المسافرون  
كلهم من المصريين .. ولا حتى الذين سيشاركوننى ظهر الباخرة من  
المصريين .. ووجدت الكثير من الحقائب والصناديق والناس قد  
تكلسوا فى كل مكان ..

وسمعت من يقول أن البحارة يؤجرون غرفتهم أثناء الطريق ..  
فكرة .. وسمعت من يقول ان البحارة يؤجرون المقاعد .. وانهم  
ينصبون خيمة فى مهب الريح .. وانه من الممكن أن ننام تحت  
هذه الخيمة .. ومعنى ذلك أن النوم ممكن .. ليلة وراء ليلة ..

أما الشنطة ففى استطاعتى ان أربطها فى رجلى .. أو اضعها  
تحت رأسى .. هكذا قيل لى .. ولكن عندما أعدت النظرة الى  
الشنطة ندمت على اننى اتيت بها .. فلا هى مليئة بالملابس .. ولا  
أنا سوف أملؤها بالملابس .. ولا ضرورة لها . وكان فى امكانى ان

اشترى كيسا من الورق أضع فيه بعض ملابسى .. وإذا اتسخت أو  
تمزقت ألقيتها فى البحر . فالشنطة خشبية .. وجوانبها محددة .  
ولم يصنعها أحد لان ينام فوقها صاحبها وكأنه نائم على حد السيف  
.. وتصورت نفسى وقد ربطت هذه الحقيبة فى رجلى .. والسبب من  
الاسباب نهضت من نومى والحقيبة فى رجلى .. وتخيلت الجنود  
الانجليز أثناء الحرب العالمية الثانية .. عندما كان ماسحو الاحذية  
يربطون أحذيتهم فى صندوق البوية ، فإذا حاول الجندى أن يطارده  
ماسح الاحذية ، فإنه يتعثر ويتشقلب .. وتتاح فرصة لماسح  
الاحذية أن يهرب ..

وقد حاولت فى احدى المرات أن اهرب من مثل هذا الموقف فلم  
أفلح .. فقد حدث اننى دأبت أحد البحارة مداعبة عنيفة عندما  
كانت الباخرة تمر فى مضيق مسينا بين ايطاليا وصقلية .. وكان  
الليل دافئا .. وكنت متعبا فقررت ان انام فى ساعة مبكرة ..  
وتمددت على ظهر السفينة تحت خيمة منصوبة .. واحتضنت  
حقيبتي .. وفعلت ما فعله كل عقلاء السفينة : ربطت الحقيبة فى  
يدى .. وفى ساقى .. وفجأة احسست بمطر ساخن .. يغلى ..  
غريبة .. فالخيمة يتساقط عنها المطر الساخن .. وحاولت أن ابتعد  
عن مكان المطر العجيب .. وقد حاصرني المطر من اليمين  
والشمال .. وعند ساقى وعند رأسى .. وفزت والحقيبة قد  
ارتطمت بى .. وتشنكلت فيها .. ولم تكن هذه امطارا ساخنة  
وانما كان أحد البحارة يلقي بالماء الساخن من ثقب فى الخيمة !

ولم يعجبنى هذا الهزار الملتهب فلم انم تحت الخيمة .. وقررت  
ان أظل طول الليل اتفرج فى الدرجة الاولى على الراحة التى ينعم  
بها بعض الناس .. أو بعض الحيوانات .. فلم تبعد عيني كثيرا  
عن كلب بنى اللون صغير قد نام على كرسى فى الدرجة الاولى ..  
وهو مثل سيده قد ادار هذا الكرسى وادار ظهره للناس وللبحر ..  
أما سيده فهو الامير يوسف كمال الذى كان مسافرا معنا الى  
أوروبا .. ولكنه سافر لآخر مرة ولم يعد !

وفى العام التالى سافرت الى أوروبا فى جوف طائرة كانت  
مخصصة لنقل الماشية من الحبشة الى السودان .. ولكن الطائرة  
جيدة .. ولم تترك هذه الحيوانات أى اثر فى داخل الطائرة ..  
ولا حتى أية رائحة .. وانما ما تزال فيها بعض الحبال .. التى

تطورت في الطائرات الاخرى الى الاحزمة المعروفة والتي يربطها  
المسافر عادة عندما ترتفع وعندما تهبط به الطائرة .. ولان  
الحيوانات كانت تقف بالعرض في الطائرة ، فلم تكن هناك مقاعد  
.. لان هذه المقاعد تشغل حيزا ، والمهم هو الحيوانات وليس  
الناس الذين جاءوا لحماية وخدمة هذه الحيوانات .. ولذلك  
عندما قررت شركة هذه الطائرات ان تجعلها طائرة ركاب ونقل  
الادميين جعلت المقاعد بالطول .. فكنا نجلس متجاورين ، كما  
يجلس الناس في زورق أو سفينة شراعية .. وكانت الحال  
مشدودة على بطوننا ، وكنا نمسكها ونتأرجح معها كلما حدث اى  
اهتزاز ، وكان عددنا كبيرا . وقيل في ذلك الوقت ان عددنا هو  
بالضبط العدد الذى يناسب الغرض المطلوب .. خصوصا اذا كان  
هذا الغرض هو العرق في البحر .. فاذا اضفنا الى عددنا الكبير  
حقائبنا الثقيلة ، اندهشنا للخفة والرشاقة التي تحركت بها  
الطائرة من الارض الى الجو ومن الجو الى طبقات عليا اخرى من  
الجو .. اما كيف وصلت بنا الطائرة بعد ذلك فيقال انه بفضل  
دعاء الوالدين .. ولان عدد اليتامى بين المسافرين كان اغلبية  
ساحقة !

وكنت احدث اليتامى ، فقد توفى والدى منذ عام ونصف عام !  
ولم يكن غريبا ان نضيق بهذه « الدكك » الملتصقة بجدران  
الطائرة .. ونجلس على ارضية الطائرة .. وبسرعة ظهرت اوراق  
اللعب والطاولة والشطرنج .. ولست متأكدا من ان ارضية الطائرة  
قد تغطت بقشر الموز والبرتقال او البيض .. ولكن من الواضح  
انها تغطت بورق الصحف .. وعلب السجائر ..

وبسرعة غريبة تحولت الصفوف الطولية الى خطوط دائرية ..  
ثم الى دائرة واحدة .. واهتزت الطائرة بالتصفيق .. فقد تحزمت  
المضيئة الامريكية وراحت ترقص على وحدة ونص .. وبشاركتها  
ويعلمها ويسدد خطاها عدد من الشبان الاشقياء .. وكانت  
المضيئة تضحك وتترنح من الرقص والانبساط .. ولا يمكن ان  
يتصور احد اتنا في طائرة على ارتفاع عشرة آلاف قدم وتجه الى  
اليونان بسرعة .. { كيلو متر في الساعة ..

وفجأة ظهر كابتن الطائرة وثار وشخط ونظر ووزع اللعنات على

الجميع بالعدل اما المضيئة فانه سحبها من ذراعها وشد الستارة  
على كابينة القيادة .. وبعد لحظات ظهر مساعده يطلب منا ان  
نجلس في اماكننا وان نربط الحزام - الحبل - والا نتحرك حتى  
تهبط الطائرة في مطار ائينا ..

وبدات الطائرة تملو وتهبط .. وتميل يمينا وشمالا وتنكفيء  
على وجهها .. وتقف على ذيلها .. ونحن نهتز ونرتجف ونساقط  
تماما كأننا غسيل منشور فوق سطوح في يوم شديد الريح ..  
وكانت النتيجة الطبيعية هي ان يصاب بعضنا بحالة من الدوخة  
والقيء والاعغاء ..

وطالت الدوخة .. ومضت الطائرة في حالة من « المرمطة » ..  
الهواء او الضغط هو الذى مرمرطها ومسح بها السماء ثم غسلها  
بعد ذلك بالمطر ..

وعندما هبطت الطائرة في مطار ائينا .. ومشت على الارض ..  
واقترب منها السلم .. وانفتح الباب لم ينزل منا واحد .. فقد  
كنا جميعا في حالة من الدوخة المؤلمة ..

ومن وجوه الكابتن ومساعدته والمضيئة التي تغيرت ملامحها  
تماما . تساءلنا عن سبب غضب الكابتن .. وعرفنا ان السبب  
كان ابعده مما تصورنا .. او مما تصورت انا .. لقد كان السبب  
مخجلا حقيقة .. يبدو ان احدا من المسافرين قد اعطاها شيئا  
مخدرا في سيجارة او في كوب شاي .. او بلا سيجارة او شاي ..  
قد جعلها لا تستجيب لاشارات الكابتن ومساعدته .. وهذا ولاشك  
نوع من التخريب ! ..

وتعددت وسائل الانتقال بين شواطئ البحر الابيض المتوسط  
ذهابا وايابا .. وعلى الرغم من انه لا توجد الا طريقتان هما ، بالبحر  
وبالهواء .. فان اختلاف السفن والطائرات يكاد يجعل السفر  
مختلفا تماما .. فالسفر على ظهر السفينة غير السفر في الدرجة  
الاولى .. والسفر في الدرجة السياحية في الطائرة غير السفر  
معززا مكرما في الدرجة الاولى ومجانا مثلا ! ..

ولكثرة السفر .. عشرات المرات ، لم اعد اهتم كثيرا بالدرجة  
ولا بالوسيلة ولا بالطعام ولا بالشراب ولا اين اضع رأسي ولا اين



أضع رجلى .. ولو وضعت رأسى ورجلى فى مكان واحد - كالجنيين مثلا - فأننى لا أتردد فى السفر .. فهو المتعة الكبرى التى تساوى كل ما يبذله الرأس والقدمان من تعب ! ..



ولا أعرف أين ومتى وكيف التقيت بأول وجه إيطالى .. فى مصر أو خارجها .. فالإيطاليون موجودون فى كل مكان .. أو أستطيع أن أقول بشكل آخر : أنه من الصعب إلا تسمع أذنى كلمة واحدة إيطالية كل يوم ..

ففى المنصورة منذ أن كنت طفلا وأنا اسمع على الأقل كلمة واحدة إيطالية يوميا .. فقد كان فى بيتنا أسرة إيطالية .. وفى نهاية الشارع يقال إيطالى .. وفى الطريق إلى المدرسة كنت أخوض طريقى بين عدد من التلامذة يتكلمون الإيطالية ..

وفى سن مبكرة جدا اعتدت على اللغة الإيطالية .. وعلى لهجتها وعلى طريقة النطق بها .. ولا أعرف لماذا اكتسبت لهجة إيطالية يصفها الإيطاليون بأنها لهجة جنوية .. ولم يحدث أن تحدثت إلى أحد من الإيطاليين حتى أبدى دهشته من لهجتى الجنوبية .. لهجة نابلى وصقلية .. مع أننى لم أكن رأيت لا نابلى ولا صقلية .. وهى لهجة أقرب ما تكون إلى اللهجة الصعيدية عندنا .. وعلى الرغم من أننى وجدت فى هذا الرأى حفلة تكريم لمجهودى الخاص فى تكوين لهجة صحيحة ، فأننى أحسست بشيء من الضيق .. وهذا الطريق قد اضطررتى فى كثير من الأحيان إلى أن أجعل صوتى رفيعا وانقلاب به موسيقيا .. ولكن كان رأى الإيطاليين أننى لم أغير لهجتى وإنما غيرت فقط من حجم الصوت .. برضه صعيدى إيطالى ! ..

وأنا لا أحب الذى به يتكلم فيحرك يديه وملامح وجهه ، وإن كنت قد وقعت ضحية لهذا التعبير بكل ملامح ومعالم الوجه والجسم ، ولكن الإيطاليين ، وكل سكان البحر الأبيض لا يتكلمون وإنما يرقصون ..

والإيطاليون يتكلمون بصوت مرتفع .. ويخيل إليك إذا لم تكن تعرف اللغة الإيطالية أنهم يتشاجرون .. وأذكر أنى كنت مسافرا

من روما إلى فيينا فى القطار .. ولم أجد مكانا .. فظلمت واقفا فى الممر .. وأخيرا عندما وصل بنا القطار إلى ممر برنر وجدت مكانا .. ودخلت وهززت رأسى تحية للجالسين .. وتلمست طريقى بين السيقان الممدودة .. وفى الركن جلست .. وارتفع صوت غليظ واعتدلت لأعرف ما هى الحكاية .. ومضى الرجل يتكلم على الصوت ولكن أحدا من النائمين لم يتحرك .. لا صحا ولا أستنكر .. وجاء صوت ناعم يرد .. كانت زوجته .. ومضى الرجل بصوت مرتفع .. أما هو فكان كالذى يجلس على كرسى فى صالون حلاق .. يلف ويدور ويتقدم ويتراجع وأحيانا ينهض كأن الشعر قد تسلسل من قفاه إلى ظهره .. والذى يسمعه يوقن تماما أنها خناقة .. مع أنه كان يروى قصة كيف سافر من القرية إلى مدينة روما وهو صغير .. وعلى قدر فهمى فأننى اعتقد أن هذا الرجل فثـار - وكل الإيطاليين كذلك - لأنه ينسب لنفسه مقامرات غير معقولة ..

وفجأة تعالت أصوات النائمين بالضحك .. وكانت أصواتهم أعلى من صوته .. أنهم جماعة من الصعايدة الإيطاليين .. ولكن حتى الذين ليسوا من صعيدنا إيطاليا فانهم لا يختلفون عن هؤلاء إلا فى درجة ارتفاع الصوت .. ولكن الطريقة واحدة ..

فالإيطاليون فيهم حيوية وشباب وطفولة أيضا .. وهم يؤمتون بتشغيل كل الحواس .. أنهم أبناء هذه الدنيا .. هذه الأرض .. وهم يضحكون .. كأنهم مكلفون بالضحك بالنيابة عن كل شعوب الشمال فى أوربا .. فهم ينظرون إلى كل شيء ويجدون شيئا يجعلهم يضحكون .. أى شيء .. ومن النادر إلا يجد الإيطالى نكتة أو قفشة فى أى شيء ينظر إليه أو يفعله أو يتذكره أو يعلق عليه .. على عكس سكان أوربا الشمالية .. ويبدو أن الإيطاليين قد اقتسموا الدنيا مع الأوربيين الآخرين : هم يضحكون وغيرهم يفكرون ويحزنون ! ..

ولا يوجد إيطالى واحد لا يفنى .. ولا يرتفع صوته فى أى وقت وفى أى مكان بعبارة من عبارات الأوبرات المعروفة .. فعمال البناء يرددون عبارات وجملا موسيقية من أوبرات : توسكا .. والشهامة الريفية .. ولا ترفياتا .. وعابده .. وفرانشسكادا ريميني .. وفى الليل وانت نائم تجد صوتا يجلجل فى الشارع : أنه أحد المارة يفنى .. أنه ليس مخمورا .. ولكن المخمور هو وحده الذى

يرفض ان يعنى لانه يخشى ان يطلب اليه احد ان يسكت لا لانه مخمور  
فلا عقوبة على الخمر ، ولكن بتهمة ان صوته قبيح .. وهذه تهمة  
كبيرة .. كما نتهم اى مصرى بأنه لا يفهم النكتة .. او دمه ثقيل  
.. او لا يحب الفول بالزيت او الملوخية بالارانب !

والايطاليون خبراء في الاكل وفي الحب .. فهم يأكلون كميات  
كبيرة من الطعام .. لا بد من المكرونة والجبنه والبييد والفاكهة  
.. والفقر جدا هو الذى لا يجد البييد .. والبييد كثير ورخيص  
.. والرجل الايطالى لا يشرب البييد لانه «شرب» ولكن لانه يريد  
ان يفرش .. ويضحك اكثر .. وعلى الرغم من الكميات الكبيرة  
من المكرونة التى يلتهمها الايطالى فان الاجسام الايطالية ممتلئة  
قليلا .. وقد وجد الايطاليون في ذلك ميرا لسلك آخر ..  
فالايطالى يطارد الفتيات في الشوارع .. يطاردهن بلا تعب من  
شارع الى اتوبيس الى شارع الى اتوبيس .. فاذا لم يفز بشيء في  
النهاية عاد يعنى .. ثم يستمر في المطاردة .. واذا سألته عن  
السبب قال لك : لا بد ان امشى .. انها المكرونة .. فانا لا اريد  
ان اكون بدينا .. ثم كيف لا اغنى ! ..

اى انه يطارد الفتيات لانه يريد ان يمشى .. وهو يريد ان يمشى  
لانه يريد ان ينشل في المطاردة ليعنى على خيبته بعد ذلك :

والحقيقة ان معاكسة الفتيات عادة لا يضيق بها الرجال ..  
ولا تضيق بها الفتيات .. فقد اعتادت المرأة على المعاكسة واعتاد  
الرجل .. وفي ايطاليا يطلقون على هذا النوع من الرجال انه بغيغان  
- بياجالو - لانه يعنى وراء الفتيات .. وان كان صوت البغيغان  
قبيحا .. فالبغيغان شتيمة فظيعة لاي رجل ايطالى !

ولكن الايطالى يتمتع بحياته .. وبعواطفه ايضا ..  
والمرأة الايطالية تشجع على ذلك .. فهي واضحة المعالم ..  
وبارزة الانوثة .. الصدر بارز .. والارداق ممتلئة .. والخصر  
هزيل .. والعينان واسعتان .. والشفتان ممتلئتان .. الى آخر  
هذه الملامح الرومانية التى اضافت لها الحرية العاطفية ان تستمع الى  
معان اخرى كثيرة مشجعة للايطاليين ولغيرهم على ان يمدوا ايديهم  
وشفاههم ويتذوقوا معانى الحياة .. كما يفعلون على شواطئ  
الانهار والبحيرات وبالقرب من البراكين وعلى اطراف الغابات ..

فمن حملت على صدرها براكين فيزوف واسترومبلى .. وفي عينيها  
سقاء البحيرات وعلى راسها اوراق وظلام الغابات .. وسيقانها  
وتراعاها وبشرتها .. مستعارة من نعومة الفواكه والحريرو البلاستيك  
والطرق المرصوفة .. والاغنية الايطالية تقول : الميضى بيدك ..  
تطعنى بقمك .. واخفقنى بتعرك .. وادفينى في صدرك ..  
واتركنى اتمد الى الابد ..

وهذه الاغنية ينغدها الايطاليون منذ وقت طويل ..

والافلام الايطالية تلتفت الى هذه المعانى التى تهم المتفرج ..

فمنذ ظهر فيلم « مرارة الارز » بطولة سيلفانا مانجانو .. واصبح  
البحرى على الشاشة شعارا للواقعية الجديدة .. ففي هذا الفيلم  
عققت سيلفانا في الوحل .. وارتفعت من الوحل لتسقط في كل  
مكان آخر .. والعيون تأكلها .. والفتيان يقلدونها والفتيات  
ايضا .. ونسى المتفرج ان الفيلم يصور مأساة عمال التراحيل في  
ايطاليا .. ولكن المهم هو ان يرى اللحم الانسانى عاريا ليلتهمه  
ياخنا .. ولينسى المشكلة الاساسية بعد ذلك .. لان المشكلة  
الاساسية هي ان يحب ويأكل من يحب ..

وقد انطلقت كل الافلام الامريكية والفرنسية تعرى الفتيات  
وتفطهن بالوحل .. ليجىء رجل يتظاهر بالشهامة ليفسل الوحل  
بالحب .. لان هذه هي القضية ! ..

وفي فيلم اسمه « الخائنة » بطولة جينا لولو بريجيدا اعلنت  
انظمة في اول الفيلم : ان الجسم كنز الرجل الايطالى ومملكة المرأة  
الايطالية .. والحياة عبارة عن معادلة بين الكنز والمملكة !

وهذه عبارة صحيحة ..

والافلام الايطالية - او على الاصح الجمال الايطالى - هو الذى  
اطلق صدر جينالولوبريجيدا وقوام صوفيا لورين وكلوديا كاردينالى  
.. وساقى سيلفانا مانجانو .. وشفتى اليانوره روسى دراجو ..  
والصوت المحوح النائم لسيلفانا بمبائيسى .. واصابع قدمى  
سكافينو .. وغيرهن من صواريخ الشاشة الايطالية .. وليس  
النساء فقط .. وانما الرجال ايضا .. فالرجل الايطالى فيه  
رجولة ويكفى ان نذكر فيتوريو جاسمان .. وماستوربانى ..  
وغيرهما كثرون ..

انه الجسم .. وسحر الجسم .. ذلك الكنز والمملكة الذي حول  
التشائه من تصوير الاعماق .. الى تصوير الفلاف الخارجى  
الجميل والانجاه الى الاعماق .. فكل الاعماق تبدأ من قشرة  
التفاحة وبشرة المرأة ..

وإذا كانت المرأة الإيطالية فى الشمال شقراء ناعمة ، فان المرأة  
فى الجنوب سمراء وأكثر نعومة .. وإذا كانت المرأة الإيطالية فى  
الشمال أوروبية إيطالية . فانها فى الجنوب إيطالية فقط  
غنائية أنتى .. محافظة .. والرجل هو السيد .. هو السيد  
للرجل وللمرأة أيضا .. ومن المناظر القريبة ان نجد الصغير يقبل  
يدى الكبير .. أو نجد الجندى يقبل يدي الضابط .. أو يدي  
العمدة .. كما يحدث فى الريف عندنا وفى أسبانيا ..

ولكن الشعر الغنائى والرقعة كلها فى الجنوب .. فأجمل الاصوات  
وأحسن مؤلفى الاغاني يعيشون فى الجنوب .. ففى نابلى توجد  
ارق الاغاني الإيطالية وأكثرها اسى وعدوبة .. وفى صقلية توجد اروع  
اغاني الفلكلور .. وأعمق قصص الحب كلها فى الجنوب .. بل  
وأعظم أدباء إيطاليا من الجنوب .. من مثل : الأديب بيراندللو من  
صقلية .. والفيلسوف كروتشه من نابلى - صوفيا لورين أيضا  
وكذلك فرجا وبورجيزه وفورتنانو وسالفا مينى وبرنكاتى ..  
وغيرهم كثيرون ..

والفارق كبير بين أهل الشمال وأهل الجنوب ..

ومن العجيب أن احدى الصحف قد نشرت مرة هذا الاعلان :  
لاشئ يضيع عندنا .. فاذا انكسرت العلب بعثنا بها الى الجنوب  
.. وإذا تحطمت الزجاجات صدرناها الى الجنوب .. وإذا اختلف  
موظف مع رئيسه نقله الى فرع الشركة فى الجنوب .. انا نجد  
لكل سلعة من يشتريها فى الشمال ، فاذا رفضها الشمال اتجهنا بها  
الى الجنوب ! ..

فايطاليا دولتان وتعبان : اناس فى الشمال .. وفقراء فى  
الجنوب ! ..

ولكنهم فقراء ظرفاء .. وأجمل ما فى هؤلاء الفقراء نساؤهم  
وحناجرهم ! ..

أذكر اننى اقممت فى مدينة بالرمو بجزيرة صقلية بعض الوقت ..  
وفى احد الايام ذهبت الى مطعم صغير يشرف على ميناء بالرمو ، وخطر

لى أن ارتدى الملابس الوطنية .. البطلون الضيق .. المفتوح تحت  
الركبة .. والقميص المفتوح عند الصدر .. والبرنيطة الكبيرة المصنوعة  
من سعف النخيل .. وشلفت سلسلة فى عنقى .. والسلسلة مكتوب  
عليها اسم فتاة .. لا أعرف من هى الفتاة .. ولكن السلسلة مكتوب  
فى التسارع جاعرة : باسم الفتاة وعنوان وهمى واسم اغنية معروفة  
فى ذلك الوقت .. ومررت امام الفندق واشتريت سلة من التفاح  
الجميل .. ورايت سيدة عجوزا تبيع النبيذ .. ومددت يدي  
واشترت وسادفتى طفل غلابان يبيع الكعك والخبز .. فاشترت  
.. وقابلتنى سيدة فيها شبه كبير جدا منى اذا بلغت الثمانين فيما  
عدا ان لها شاربا خفيفا وكانت تبيع الورد .. ومددت واخذت ..  
وشكرتيا .. وشكرتنى ..

والصورة التى أمامك الآن : هى صورة لسائح ينسبه السياح  
الخواجات الذين يجيئون الى مصر ويرتدون الطربوش ويجعلون الزر  
الى الامام .. ويمكن الطلبة ويشترتون الشباشب الزنوبة  
ويعلقونها فى رقابهم .. ثم يلفون متديلا حول العنق وشالا حول  
الخصر .. ويستعدون لاي نقر على اية طيلة ليرقصوا ويهزوا بطونهم  
.. تم يضعوا فى جيوبهم سندونشات الفول .. اى أنهم يحاولون أن  
يكونوا تريبى ائشبه جدا لصفات المصريين التى جاءت فى الكتب  
السباحية فى أوروبا وامريكا .. ودخلت أحد المطاعم ونهض صاحب  
المطعم وقال : بون جورنو .. ورددت عليه .. وقال لى اتفضل ..  
وساعدتنى على نقل مامعى ووضعته على كرسي آخر .. وساعدتنى على  
وضع الورد فى اناء جميل .. ووضع الورد امامى .. وجاءت  
زوجته بمفرش رائع ووضعته على المنضدة .. وجاءت ابنته ..  
وأخذت النبيذ والكعك .. وجاءت ابنته الصغيرة وراحت  
تمشط شعري .. وتختار لى وردة وتضعها حول اذنى .. وجاء  
تصاب ظريته وسيم .. ومد يده الى السلسلة التى فى عنقى ..  
ورأى اسم الاغنية .. وقال سعيدا : ان ذوقنا واحد ..

ومن المؤكد اننى كنت سعيدا .. ولكن لا اعرف مناسبة لذلك كله  
.. لقد كنت سعيدا والسلام .. والسبب والمناسبة ولماذا كل هذا  
- لاينهم ابدا . واعتقد ان هذا الموقف السعيد قد أثر فى نفسى زمانا  
طويلا .. فقد قررت بلا وعى متى أن اكون سعيدا والسلام ..  
وأجمل ما فى هذا القرار انه قرار جسمى .. اى أن جسمى هو الذى  
اتخذه مستقلا عن عقلى .. وهذه نعمة من نعم الله .. أن يكون  
للجسم قرار واحكام لايسانفها العقل !

أورييسة .. لكثرة الكنائس والقديسين .. ولكثرة المترددين على بيوت العبادة ..

ومن الحوادث المشهورة انه في سنة ١٩٥٢ هزم حزب ديغاسبري في الانتخابات . وبعد الهزيمة سالت الدموع من أحد التماثيل في مدينة سراكوزة في صقلية .. واتجهت الطائرات والسيارات والقطارات والسفن الى حيث يبكى القديس - ملايين الناس وملايين الصور .. واقامت المطاعم والفنادق .. وطبعت ملايين الصور والتماثيل وطوابع البريد من أجل دموع القديس .. وبعد ذلك بشهور سالت دموع أخرى لقديسين آخرين في مدن مختلفة .. وتحولت السيارات والطائرات والبركات الى حيث الدموع الطاهرة اللامعة في ضوء ملا نهاية له من الشموع !

وعلى الرغم من هذا التدين الشديد فان الإيطاليين ايضا ليسوا متمسكين بالدين .. ففي إيطاليا اتجاهات دينية قوية : فيها الفاتيكان .. وفيها اتجاهات متحررة عامة : فيها أكبر حزب شيوعي في أوروبا .. وفيها جمعيات أدبية متحررة .. وفيها هيئات فوغوية .. وفي إيطاليا أدباء يهاجمون الكاثوليكية بعنف وسخرية ..

وقد ضحكت إيطاليا كلها مع فيلم « دون كاميللو » الذي قام ببطولته الممثل الفرنسي فرناندل .. والفيلم من تأليف الكاتب الإيطالي جوارسكي الذي دخل السجن بسبب بعض العبارات النابية وبسبب هجومه على الكنيسة .. ولكن إيطاليا لم تمنع هذا الفيلم الذي يسخر من نصف المفرجين عليه .. أي من القساوسة !

ولم يكتف المؤلف جوارسكي بهذا الفيلم فقد ظهر له فيلم آخر اسمه « عودة دون كاميللو » ..

وظهر فيلم ثالث اسمه « بينو وفولينا » .. أما بينو فهو اسم طفل من مخلفات الحرب العالمية الثانية .. وفولينا هو اسم « الحمارة » التي اشترتها القرية لهذا الطفل .. وقصة الفيلم الذي شاهدناه هنا في القاهرة ان الحمارة مريضة .. والطفل يريد ان يدخل بها الكنيسة لتزور معه قبر القديس فرانشسكو .. وهو الرجل الذي أحب الطيور والحيوانات وكان يمشي حافي القدمين .. وهو الذي تنسب اليه جماعة الفرانسكان الذين يخلقون شعورهم ويمشون حفاة .. او يرتدون الصنادل التي تعري القدمين كما كان يفعل القديس فرانشسكو . ورغب الطفل ان يدخل الكنيسة بحمارته .

والتف هؤلاء الناس حولى .. وجاءوا بمقاعدهم .. وكل واحد جاء بطعامه وشرايه .. وجعلنا نأكل ونضحك .. ويتبادل الرجل وأولاده الرقص .. والغناء .. ونشترك معا في هذه الهيصة .. ومن حين الى آخر انظر الى الوجوه ابحت عن مجنون .. لا بد ان يكون هناك واحد مجنون - يغنى ويرقص ويضحك ويأكل ويشرب دون سبب واضح .. لم اجد أحدا مجنونا . فالضحك صادق .. والسعاد مؤكدة ..

ولابد ان يسألنى احد : ماذا حدث بعد ذلك ؟

لم يحدث اى شئ بعد ذلك ..

فقد كنت اول زائر لهذا المطعم في احد الاعياد المقدسة .. وقد تفاءل الناس بزيارتي .. وغمرونى بالرقعة والكرم والقبليات على الوجه وعلى الاكتاف .. وعلى اليدين .. والشئ الذى ضايقنى عندما عدت الى الفندق هو كيف اننى لم ارد على هذه القبليات بأحسن منها .. وكيف اننى كنت متفرجا ولم اكن ممثلا مندعجا في الدور .. او حتى متفرجا متحمسا .. والمسببة اننى لم اكن أعرف المناسبة .. وانما هي مجرد الصدفة .. فقد تصادف اننى قررت ان اكون إيطاليا في نفس اليوم الذى تحتفل فيه الجزيرة بعيد احد القديسين .. وما اكثر القديسين في إيطاليا !

ومثل هذا المشهد في الجنوب لا يمكن ان نجده في الشمال بهذه البساطة والنقاء والحرارة .

ولا يمكن ان يحس الانسان الا نادرا في حياته انه يخفى تحت جلده اجمل ما في الدنيا : رائحة الزهور وحرارة الشمس ونشوة السعادة وبراءة الطفل وابدية اللحظة التي يعيشها !

والرجل الإيطالي الذى يرقص ويغنى هو نفسه الذى يقتل ويسرق وينهب .. وهو ايضا الذى يذهب الى الكنيسة ويصلى .. بنفس الحماس والحرارة والصدق !

وأيطاليا هي بلد : ماركوني مخترع الراديو .. وبلد آل كابوني المجرم الاثني .. وبلد كازانوفا العاشق الولهان .. وبلد الفاتيكان .. ومهرجانات السينما ومهرجانات الاغاني .. وسباق السيارات .. ومعرض « بينالى » في البندقية ..

وأيطاليا تشعل من الشموع في كنائسها اضعاف ماتفعله اية دولة



## طلياني بين الصعادية!

اولاد سوارع .. بكل معنى الكلمة في كل اللغات ..  
قبلاهم الحارة الممتدة من الجنوب الدافئ الى الشمال  
الجليدي .. جعلتهم يعيشون بالساعات في القطارات  
والسيارات .. وفي السوارع المرصوفة الناعمة .. وجعلتهم  
اصحاب اكبر عدد من المقاهي والمطاعم الصغيرة والمتوسطة والكبيرة  
والضخمة في أوروبا كلها ..

وكلمة « شارع » تتردد كثيرا في أسماء القصص والافلام لان  
الشارع ملتقى حيوي لكل الناس ..

والشارع تتغير معالمه في كل ساعات الليل والنهار ..

ففي الصباح المبكر تجد الشوارع عبارة عن ميدان لاطلاق النار  
والدخان .. فالسيارات كثيرة وسريعة ومدوية .. وكذلك  
السيارات الساخنة ..

وبعد ساعة تمنلىء الارصفة بالمشاة المرعفين .. كل واحدة  
وواحد الى عمله ويقفون بالعشرات امام محطات الاتوبيس ..

وبعد ساعة اخرى يجيء دور الارصفة .. وعلى الارصفة تجتمع  
المقاعد الملونة والمفارش النظيفة .. واكواب الماء .. والشاي والقهوة  
.. ويجلس الناس على المقاهي ويحلقون بعضهم لبعض ..

وعند الظهر تتحول السوارع الى سوق ومهرجان وترسالة  
للسيارات والاتوبيسات والناس والسياح والضوضاء .. والصراخ  
والاصطدام والمعاكسات ..

اما عند الغروب فالشارع والارصفة مهرجان .. وعرض للازياء  
والجمال الايطالي .. لا اول له ولا آخر .. ودوخة مؤكدة اذا قررت  
- بسبب قلة العقل والجشع - ان تتابع كل النساء وكل الاحذية  
وكل الأذرع والسيقان والصدور والشفاه وتحاول أن تترك أثرا أو  
تتلقى اثرا .. أو تطلق اشارة أو تتوقع اشارة .. واحسن نصيحة

وامام رغبة الطفل رفض قساوسة القرية مع أن كنيسة القديس  
فرانشسكو قد رسمت عليها صور للطيور والحيوانات ..  
ويلجأ الطفل الى البابا .. ويناقش البابا والكرادلة في هذا المطلب  
الغريب للطفل .. ويرون انه لامانع من دخوله هو وحمارته الى  
الكنيسة .. ويدخل الطفل مع حمارته .. وتعثّر قدم الحمامة  
في كتز في داخل الكنيسة .. وهذه النهاية للفيلم هي التي  
تجعل المعنى الاخلاقي واضحا : وهو ان الكتوز تتفتح للمتواضعين  
والمؤمنين البسطاء .. ايمان الاطفال ! ..

تم هجوم سينمائي على هذا الفيلم .. ومناقشة فيها كثير من  
الاستخفاف للقصص الدينية ..

وكل هذه التناقضات الحيوية الحارة موجودة في ايطاليا وفي  
الشعب الايطالي ..



لك هي ان تفعل بالضبط مايفعله رواد الفضاء ان تسلتقى على ظهرك وتترك نفسك في حالة انعدام الوزن .. وتعود الى الفندق بعد ذلك نبتلع ما تستطيع من الحبوب المنومة .. واذا كنت سعيدا رايت شيئا ما في احلامك يعوضك عن الحرمان بكل الوانه الطبيعية ! .

وفي ساعة متأخرة من الليل .. يصبح الشارع اسود لامعا مغسولا باردا .. ويقذف اليك الهواء بالموسيقى والروائح الغريبة من كل جانب .. وينتهي بك الشارع عادة الى نافورة .. لا يوجد شارع لا يصل الى نافورة .. وهذه النافورة هي دش رقيق جميل لتخفيف حرارة الجو .. او حرارة الجوف .. وانت حر بعد ذلك ان تدير ظهرك للنافورة وتفرج على جمال الليل .. الذي يلقي ضيائه الحاملة الرقيقة على الوجوه الجميلة .. او على حركة الجمال الرقيق في الشارع من رصيف الى رصيف .. او من الرصيف فجأة الى سيارة ذات فرامل صارخة - وما أكثر السيارات التي تتوقف فجأة وتلتقط بنات الشوارع .. وبعد لحظات تنفتح السيارة وتلقى بنات الشوارع الى الشوارع ..

وانت ماتزال حرا في ان تجعل ماء النافورة ينزل على وجهك وتتركه يتسلل الى ملابسك .. فللماء في هذه الساعات من الليل فعل السحر عندما يصيبك الياس ..

وهذا الليل في ايطاليا هو ابو المساكين والمحرومين والمفكرين .. ولانه اب للجميع فهو قادر على ان يجمع بينهم على رصيف واحد وعند تقاطع شارعين .. وفي الميادين وعلى المقاهي .. وفي الاركان المظلمة وفي مداخل البيوت .. وفي المصاعد التي تقف في الظلام عند الطابق الاخير وتنفتح الابواب دقائق .. ثم يعود الهاربون فيها الى الشارع مرة أخرى ..

وبعد منتصف الليل .. تتعالى اصوات العائدين الى بيوتهم - ويدور بينهم وبين رجال البوليس احاديث وابتسامات وغمزات ولمزات .. يقول عسكري البوليس :

- الى اين ؟

- وانت الى اين ؟

- عندي موعد غرامى .

- يا بختك ..

- سمعت هذه العبارة من امي ومن احد اللصوص ..

- لقد كانت امك على حق ..  
- وانت ما الذى تعرفه عن امي ؟  
- ان واحدة تاتي الى الدنيا برجل ظريف مثلك تستحق التكريم ..  
- اشكرك ..

- ولكن الام التي تاتي بواحد مثلك يجب ان تندم مدى حياتها الثانية بعد الموت !  
- وكيف ذلك ؟

- انت تجمع بين ماتقوله امك وبين مايقوله لص .. دون ان تفرق بين المجرم وبين التي أجمرت أنت في حقها ..

- ومن الذى قال اننى اتحدث عن اللصوص ..  
- انت الآن ..

- آه .. انت فهمت ان هذه الكلمة معناها لص .. ان معناها السيدة المحترمة .. فهذه الكلمة عامية عندنا في الجنوب .. فكيف لاتعرف ذلك وانت من الجنوب ايضا !

وكنت قد نسيت اننى من الجنوب .. ففي الليل يصبح اهل الجنوب مثل اهل الشمال .. مجرد اشباح جائعة تروح وتجيء ..

اذكر اننى عندما قرأت قصة « فتاة روما » لصديقى الاديب الايطالى البرتو مورافيا .. هزتنى هذه القصة .. وطلبت منه ان يرينى هذه الفتاة التي استوحى منها القصة .. او أية فتاة شبيهة بها ..

وضحك الاديب الايطالى ..

وضحكت انا ايضا لسذاجتى المفاجئة .. فانا ايضا اكتب مثله .. واتخيل .. وليس من الضروري ان تكون للصور التي ارسمها اى وجود في الواقع .. بل ان الادب الواقعي ليس هو الادب الذي ينقل الواقع نقل مسطرة .. ولكنه الادب الذي ينقل الواقع كما نراه نحن وكما نتخيله نحن .. ونحذف منه ونضيف اليه مايعجبنا ..

ولكن على الرغم من ذلك كنت اقف في ميدان ايسديرا القريب من محطة روما .. واقول كانت المسكينة ادريانا بظلة قصة « فتاة روما » تقف هنا .. وعندك شك بيع الصحف .. وكانت تتوارى من البوليس .. مسكينة كانت جميلة .. رقيقة فقيرة .. ولم يكن عندها مايتبعه

غير هذا الجسم .. وعندما قررت ان تعطى جسمها للشخص الذى تحبه كانت النهاية .. نهايتها ونهايته ..

وقبل الفجر بساعة يجمع الليل بقاياها من كل شيء .. الناس يختفون فى بيوتهم .. وتختفى النساء تماما .. ويتأهب رجال البوليس الى العودة الى بيوتهم .. وتظهر عربات اللبن وعربات الخبز واللحوم والفاكهة .. ويظهر الكناسون بالمئات .. ويدفعون امامهم اكداسا من مخلقات معركة الامس .. وهى معركة كل يوم .. العلب والزجاجات الفارغة وأوراق الصحف والفواكه ويفسلون الارض .. أو يفسلون الارض التى تلمع كأنها سقف أو كأنها جدران .. أو كأنها أطباق تاكل عليها مدينة روما .. تاكل أهلها من الرجال والنساء .. كل يوم تأكلهم وتمضغهم وتحققهم وتهضمهم ثم تلدهم من جديد .. وبذوب الناس .. وتبقى الشوارع حية حارة .. شديدة النهم .. تاكل ولا تشبع .. تشرب ولا تتروى .. تفضح وتستر .. ولكنها تستر أكثر وأكثر ..

ولكن هناك دائما مجتمع متجدد كل شيء فيه موجود .. جاهز .. الحب جاهز .. العشيق جاهز .. والشجار جاهز .. الموسيقى هى الهواء والغناء هو الماء .. والرقص هو المد والجزر .. والمرأة هى القمر الذى يرفع الماء ويتركه يهبط من التعب .. كل ليلة .. على كل شارع .. على كل رصيف .. فى كل ساعة ..

فى أحد الايام كنت فى مدينة بروجه .. واخترت مقهى فى ميدان الكاتدرائية .. المقهى واسع عريض .. أثيق جميل .. فخم .. واخذت مكانا قريبا من نهاية المقهى .. قريبا من السور الحديدى الذى يضعونه حتى لا يهرب الزبائن .. أو حتى لا يهرب الى الزبائن اناس من الشارع .. واخترت هذا المكان لكى تكون الموسيقى بعيدة بعض الشيء .. فأسمعها اذا أردت وأتجاهلها اذا أردت .. على عكس الذين يجلسون الى الداخل فيشعرون ان الموسيقى مقررة عليهم .. وأنهم كأفراد الاوركسترا .. ولكنى قررت ان اكون متفرجا ومستمعا .. واخترت المكان بالقرب من الباب أيضا ..

ولما سألتى الجرسون : سيدى ؟

قلت : آيس كريم بالصودا وبعض البسكوت .

قال : حالا ..

ولما لاحظت انه يسألنى ويرد على بصورة آلية .. تضايقت .. فهو لا يعرف ان المال الذى معى قليل .. واننى قررت ان اجلس هنا وان استمتع لأقصى درجة .. ومهما كان المبلغ الذى ادفعه تافها ، والبقيشيش الذى سيتقاضاه اتفه ، فان هذا المبلغ كبير بالنسبة لاموالى .. وانه ليس من حقه ابدا ان يقف الى جوارى ولا يرانى .. وان يستمع الى دون ان يتفضل مشكورا فينظر الى ذقنى التى حلقتها بعناية .. وملابسى النظيفة الانيقة والتى تدل على اننى اجنبت على درجة من الثراء .. أى اننى قادر على ان اعطيه بقشيشا كبير .. ولكن ما هو هذا البقيشيش الذى سوف ادفعه .. انه لا يزيد على عشرة قروش .. ولكن عشرة قروش فما الذى أريده ان يفعل بهذه العشرة أو هذه العشرين ؟ أريده ان يعبرنى ان يحترمنى .. فقلت له : لا أريد شيكولاته ..

- حاضر .

- وان تكون الصودا من ماركة سان بلجرينو ..

- هى الوحيدة التى عندنا ..

- أما البسكوت فهو الذى أريده بالشيكولاته ..

- هو الوحيد الذى عندنا ..

- وهل من الممكن ان ادعو هذه الفتاة لتجلس معى هنا .

- ممنوع .

- انها طفلة صغيرة متسولة ..

- لأنها كذلك يا سيدى .

- فاذا اصرت .

- انا متأسف .. ممنوع .

- ولكنى مصر على ادعو الى مائدتى المتواضعة مواطنة ايطالية

- مواطنة ايطالية ؟ !

وتركنى .. واتجه الى داخل المقهى ..

ولا اعرف لماذا خطرت لى فكرة استدعاء هذه الفتاة الصغيرة التى وقفت امامى ومدت يدها عبر السور تبيع الصور الدينية وتمائيل لطيور وحيوانات .. وربما كان السبب الحقيقى هو اننى لا أريد ان اكون مجرد « كتلة » تشغل احد المقاعد .. فالجرسون لا يرى الا كتلة من اللحم والشحم على أى مقعد ..

ثم يسألها دون أن ينظر إليها .. ثم يختفي ويعود بالطلبات ..  
فهو عمل آلي .. وهو آلة .. والزبون شيء .. أى شيء ..  
وتضايقت من أن اظن « شيئاً » مدة طويلة ..

فأنا شيء فى كل مكان أذهب إليه .. لا الفت النظر ولا الأذن ..  
ولا العقل .. يرانى صاحب البنسيون فيخفى رأسه فى الورق  
يبحث لى عن جواب أو عن رسالة أو يعطينى مفتاح الفرقة ..  
وبحركة آلية يقول : صباح الخير .. أو أصبح على خير .. أو  
يقول تعاليفاً مضحكاً .. وعندما يظلمنى التليفون فإنه لا ينطق  
أسمى وإنما يقول : نمرة ٢٠ هنا .. أو ليس هنا .. أو يقول :  
آه الفيلسوف هنا .. آه لقد خرج فى الصباح فيلسوفنا ولا أعرف  
كيف عاد الآن .. لعله شاعر الآن .. أو يقول : آه .. كتب أخرى  
.. لا أعرف هل ما يزال صاحبنا يأكل الكتب .. أو يبيعها ..  
آه .. من نمرة عشرين آه ..

ولذلك قررت الا اكون شيئاً فى هذا المقهى .. وأن يدور بينى  
وبين الجرسون كلام .. وأن أتم قضية .. وأن تكون هذه  
القضية مخجلة لأحد منا نحن الاثنين .. فلا يزال الخجل أحد  
ينابيع الوجود الأخلاقى .. والاجتماعى .. وهذا الموقف  
اجتماعى وأخلاقى .

وعاد الجرسون ومعه مدير المحل .. وفى عيني المدير رجاء  
بالأ فعل ذلك .. وأنه مستعد أن يقدم لهذه الفتاة أى طعام على  
حساب المحل ..

ولم اكن أريد أن ادخل فى مناقشة .. وإنما فقط ان ينظر لى  
أحد فى عيني .. وأن ينتظر ما أقول .. ولذلك لم أتمسك  
بموقفى ..

ومددت يدي خلال السور الحديدى أعطيها شيئاً ..

وقبل أن تمتد يد الفتاة قال لى مدير المحل : اشتر منها أى  
شيء .. فهى بائعة صغيرة جميلة .. ويجب ان تكون بائعة ..  
وإذا تعلمت وكبرت فأنا أعدّها بأن أجعلها تبيع الزهور هنا فى  
داخل المطعم ..

ولم تصدق الفتاة ما سمعت ..

وامتدت يدي تشتري وتدفع أكثر .. وامتدت يد المدير ..

وشكرنى المدير .. واعتذر الجرسون .. واستعجلت الأيس كريم  
فأنى استحق التكريم .. وكرمت نفسى .. وانتقمت من الإيطاليين  
الذين جعلونى « شيئاً » سياحياً متواضعاً !

ولكنى قبلت أن اكون شيئاً وأقل من شيء عندما ذهبت الى  
جزيرة كابرى وفاتنى الباخرة العائدة من كابرى الى نابلى ..  
ولم يكن معى جواز السفر .. فقد تركته فى الفندق فى نابلى ..  
ومعنى ذلك اننى لا استطيع ان ابيت فى أى فندق .. ولا فى أى  
بنسيون .. ولا استطيع ان أتمشى فى الشوارع حتى الصباح ..  
فكابرى ليست بها شوارع .. فالشوارع قصيرة جداً .. أو هى  
ضرق تعلو وتهبط بعنف .. ولا استطيع ان اركب حنطوراً يطلع  
وينزل طول الليل .. ربما كان هذا ممكناً فى فرنسا .. أو فى  
اليابان أو فى هونج كونج .. ولكنه ليس ممكناً فى كابرى .. ولم  
أعرف كيف اتصرف بسرعة .. ولكنى قررت ان أتخلص من  
الموقف الصعب .. فعند الثانية عشرة مساءً بدأت المطاعم تقفل  
أبوابها .. ولكن الكباريات ما تزال مفتوحة .. وبعد الكباريه  
ما الذى استطيع ان أفعله حتى الصباح .. أو حتى الحادية عشرة  
عندما تعود أول باخرة الى نابلى .. أنها ساعات طويلة جداً على  
الذى لم ينم منذ يومين ..

وبعد سهرة سخيفة جداً فى كباريه من الدرجة الثالثة خرجت  
الى الشارع .. الجو بارد .. الريح شديدة .. الموج مرتفع ..  
وليس فى الامكان ان اتحدث الى أى أحد .. وأحاول أن أكون  
ظريفاً .. وقد انجح فى المحاولة .. ولكن لا يمكن أن يكون أى  
أحد ظريفاً معى ومتسامحاً لدرجة ان يقول : ياه .. بس كده ..  
يا راجل اعتبر البيت بينك .. انا سأترك لك سربرى وأنا فى  
المطبخ .. خذ راحتك !

أو يقول : آه .. طيب ممكن تنام فى الصالون ..

أو يقول : أعطيك مقعداً وتجلس عايشه أمام الدكان .. وقيل  
أن تشرق الشمس يكون الشاى والسندوتش تحت قدميك !  
أو يقول : الا تزعم انك فرات كثيراً فى كتب الشطرنج .. مارايك فى  
ان تلعب دوراً حتى الصباح !

أو يقول : ضع يدك فى جيبى وأنا أصرخ .. وأقول : حرامى ..  
وإذا لم أجد أحداً يمسكك .. فأنا أمسكك وأتركك فى القسم حتى



ثلاث ساعات .. ساوقفك في الساعة ..

وتركنى نائما حتى التاسعة ..

وعندما صحت من نومي لم أجد أحدا في البيت ولا حتى الشاب الهندي ..

وبحثت عن بعض ملابسى فوجدت العجوز قد غسلتها وعلقتها على حبل أمام البيت .. مناديل وجواربي وقميصي ..

ما اسمها ؟ من هي ؟ أين هي ؟ لا أعرف الآن .. ولم أعرف حتى في ذلك الوقت .. انها ايطالية طيبة .. انها ام طيبة .. بل انها الطيبة كلها !

وكان لابد ان انتظرها حتى تعود .. لكى اشكرها بكل ما تجدد في جسمى ونفسى من حيوية !

وجاءت السيدة وكأنها لا تريد ان تعلق على ما حدث او على وجودى .. وانما قالت كائنى احد نزلاء بيتها ومطعمها الصغير : نمت جيدا ؟

قلت : شكرا لك !

ونحكت : سوف تنسى ..

وقلت : انا سوف أنسى .. وأنت ليس عندك ما تذكرينه ؟

قالت : هذا ..

اى هذا الذى صنعته لى .. او هذا الشخص الذى هو انا ..

وعادت تقول : انك لم تكلفنى شيئا .. انا أعيش وحدى .. والبيت خال .. والسرير خال .. ومنذ مات ابنى فى حرب الحيشة وانا قد اتخذت هذا القرار .. وهو الا اقبل بابى فى وجه أحد .. وهذا هو السبب فى اننى جعلت اسم المحل : الباب مفتوح دائما .. والناس هنا يضحكون ويقولون : ان الباب مفتوح دائما .. وانا غير موجودة دائما .. لانى اذهب الى السوق واشترى كل شئ لنفسى .. ولذلك اترك المحل معظم الوقت .. ولم يختلف من بيتى عود كبريت واحد .. منذ عشرين عاما !

وانحبت العجوز الى صندوق فى الحائط وفتحتنه واعطتنى طاقيئة من الحرير وقالت لى : على بركة الله يا ابنى .. ضعها على رأسك .. الله يحملك .. ويرحم روحه فى السماء !



الصباح .. وفى الصباح اعتذر لك عما حدث واقول اننى كنت مخمورا !

وطردت هذه الاوهام .. وبشعور غريب دفعت الباب .. وانفتح الباب .. ولم ار أحدا .. وفتحت عينى جيدا .. ولم ار أحدا .. وقلت للظلام الذى انفجر فى وجهى من داخل الباب الصغير : مساء الخير ..

وسمعت صوتا يرد التحية .. وفاض النور .. وظهرت مقشة كهربية .. وعلى المقشة انحنت سيدة عجوز ..

- هه .. وانت كمان عاوز ايه ؟ !

- نسيت جواز السفر .. وأريد ..

- ادخل .. واقفل الباب وراءك ..

ودخلت واقفلت الباب ورانى .. واغرقنى النور .. أكثر .. وانفتح باب .. ووراء الباب وجدت شابا اعتقد انه هندي .. قد نام على الارض بعد ان خلع معظم ملابسه ..

وقالت العجوز : تنام هنا ؟

قلت : لا .. اساعدك ..

وضحكت وهى سعيدة : انت ولد طيب !

وكانت هى اطيب منى عندما قدمت لى كوبا من القهوة السادة .. ثم كوبا آخر .. واثناء وقوفى فى المطبخ وراء طايور طويل من الاطباق وأكوام من السكاكين والملاعق والشوك .. وحنفيات الماء تغلى من ورانى .. وبعد ساعة جاءت العجوز تقول : نصيحة يا ولدى !

وتوقفت لاستمع شيئا جادا .

فقالت : اذا قلت لسيدة شيئا فلا تراجع عنه .. وكل كلمة تقولها للمرأة هى حق مكتسب لها .. فالمرأة قد سمعت كلاما كثيرا ولم تجد الا افعالا قليلة جدا .. لذلك فهى لا تكاد تسمع الكلمة حتى تتعلق بها كأنها آخر طوق نجاة فى الدنيا ..

ومسحت عينى انتظارا لتوضيح أكثر .

فقالت وهى ضاحكة : انت الان طبعنا نادم على انك أعلنت عن رغبتك فى مساعدتى هنا .. اذهب الى هذه الفرقة وحاول ان تنام

ولا اعرف كم من المرات ذهبت فيها الى ايطاليا .. ربما  
عشرين .. ربما ثلاثين مرة .. فهي في الطريق الذهب الى دول  
الشمال .. وفي طريق العودة ايضا ..

ولكن هذه الزيارات المتكررة لم تجعل طعم ايطاليا كالخبز ..  
ولا مذاقها كالماء .. انها دائما جديدة .. انها بلاد سياحية ..  
اعتادت ان تكون عروسا لكل سائح .. سواء اقام ليلة .. فهي  
عروس ليلة .. او اقام شهرا .. فهي عروس شهر .. والدولة  
الاطالية تعلم انها تكسب الملايين من حفلات الزفاف الدائمة لكل  
سائح اوروبي او امريكي او افريقي او اسيوي .. ولذلك فهذه  
العروس قد اتخذت اسلوب شهرزاد فهي تحكى كل ليلة قصة ..  
ملايين القصص لمليون شهريار ..

وافلحت شهرزاد الايطالية ان تؤكد لشهريار الاجنبي انه  
الوحيد الذي في قلبها وعلى ذراعها وتلى صدرها .. وانه فتى  
احلامها وكنز مستقبلها .. وانه ايضا فريسة شباكها وضحية  
غرامها .. وانه تفاحة وانه بكرة في تفاحة وانه قشرة تفاحة ..  
وانه في صناديق الزبالة بعد ذلك .. وكلما اغتسلت صناديق  
الزبالة .. وامتلات الصناديق بالتفاح .. ووقفت السفن والطائرات  
تلقى ما في بطونها من السياح .. اقيمت الشوارع .. نصبت  
كانها مستراح فخمة .. وانتظرت الوافدين الجدد .. بالقصص  
الجديدة .. بمليون .. بعشرين مليون شهرزاد .. هن اخوات  
وبنات خالات : صوفيا لورين وكلوديا كاردينالي ..

انها معادلة صعبة :

ان يعيشوا على مصائب

الانسانية .. دون ان تصيبهم !



أكثر من سولبيرا



:: شهر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

ولتعتذر لى .. ولم اهتم كثيرا بأنه يقرأ لى مقالاتى .. وأنه اعجب بقضايا ائرتها .. وأنه تمنى لو يلقانى ليناقتنى ..

وكانت كلماته مثل رصاص انطلق على لوح من الزجاج يصد الرصاص .. فتحوّلت الى مجرد طرقة .. صوت وصلدى .. ثم جاءت تحيته وهزته لرأسه كمساحة تزيل المطر من فوق لوح من الزجاج ..

وقى البن الاسود ابتلعت هذا الموقف البايخ ..

انه موقف سويسرى ..

وهذا الرجل قطعة من ارض وسوارع ووديان وجبال وغرابة وصلابة وصحة وميكانيكية البلد التى أسماها سويسرا !



ولم تنغير هذه الصورة كثيرا عندما ذهبت الى سويسرا نفسها .. ففى بنسيون « الزيتون » بمدينة جنيف ، أعجبتنى صاحبة البنسيون . ففى وحدها التى تطبخ وتنظف . وتزرع الحديقة وتقلعها . وهى التى ترد على التليفون وتعيد تسوية الغرف . وعندما بعد ذلك متسع من الوقت لتضحك وتجاامل ..

وهى تشبه ترسا من النحاس اللامع يدور فى ساعة فضية نظيفة . ولا علاقة لها بشئ آخر فى هذا العالم .. انها ست بيت .. أو صاحبة بيت .. وهذا يكفيها ..

ففى فى حالها .. وكل الناس كذلك !

سألتها : ألم تعرفى الحب ؟

قالت : وأنا صغيرة .. وانتهى كل شئ !

— ما هذا الذى انتهى ؟

— الحب !

— وكيف بدأ ..

— أنت تعرف .

— ولكن الذى لا اعرفه هو كيف انتهى ؟

— هو مات .. وأنا ما أزال حية !



## يعنى ايه : خوف؟!

**أول** مرة المس فيها الارض السويسرية والجبال السويسرية واللحم والدم السويسرى عندما ذهبت الى محل البن البرازيلى فى القاهرة ورايته .. رأيت ذلك الرجل الطويل العريض الذى يمشى على الارض ويدب .. ويحاول أن يؤكد لأحد من الناس أن الاسفلت يمكن أن تفوس فيه الاقدام .. وعلى الرغم من أن قدمه لم تترك أى أثر على اسفلت الشوارع سليمان باشا .. فان هذا الرجل لم ييأس .. انه يحاول .. انه يمشى بسرعة ويدب . ويلتفت بحدة وهو يشبه عقرب الثوانى وسط أناس يشبهون عقارب الدقائق وأحيانا عقارب الساعات والسنوات .. ولكنه ينفذ مخططا فى رأسه .. هذا المخطط جعله سليم الجسم .. متين البنيان .. فى الثمانين ويبدو كأنه فى الاربعين .. انها صحة .. انها سويسرا ..

وقى البن البرازيلى عندما رأته فرحت .. وبلا تفكير مددت يدي أصافحه .. وبلا تفكير فرحت .. فقد رأيت هذا الرجل أنه الدكتور ران الذى كان يدرس لى اللغة الالمانية فى الجامعة وظلت يدي ممدودة . وهو يسألنى : من أنت ؟

وظلت يدي ممدودة . فالرجل يرفض أن يسلم على شخص لا يعرفه .. ووضع من ابتسامتى التى تقلصت .. انها كانت ابتسامة تلميذ لاستاذة .. فتحوّلت الى ابتسامة تلميذ لم يعد تلميذا .. ثم تحوّلت الى غضب مهذب من خواجة قليل الذوق .. ثم بسرعة تحوّلت الى اعتراف بالفارق بينى وبينه .. بين الشرق والغرب .. ثم الى تقرير فارق ثابت .. وبناء حائط جامد بارد بينى وبينه .. وعبر هذا الحائط البارد تشعبت كلماتى لتقول له : أنا تلميذك فلان ..

ولم احفل بعد ذلك بيده العنيفة التى امتدت لتصافحنى

– اختصرت الموقف جدا ! ؟

– أنا لم اختصره !

– ولكن الحب ليس حكما نهائيا .. انه حكم يمكن الرجوع فيه فالقلب الذي احب مرة .. يمكنه ان يحب مرة اخرى وبشكل آخر .. فالقلب كالساعة لا يدق مرة واحدة .. ولا يمتلىء مرة واحدة .. انه يدق دائما .. ويظل يمتلىء بايدينا .. ويمتلىء بنفسه ..

– أنا ساعة تذكارية .. لا تدق ولا تمتلىء !

– ولكنك ما تزالين جميلة ..

– اذن .. ساعة تذكارية جميلة ..

– وتذكارية لماذا ؟

– فليس عندي وقت للحب !

– ليس عندك وقت .. من الذي عنده وقت ؟

– انت .. انتم ..

والحقيقة ان المشكلة ليست الوقت .. ولكن هي طبيعة السويسريين رجالا ونساء .. ليسوا خياليين ولا شعراء .. وانما هم اناس عمليون جدا .. وهم يفضلون القلوب الخالية على القلوب الثقيلة المليئة .. لان القلوب الخالية مثل الغرف النظيفة. وهم يفضلون النظافة على أى شيء آخر !

وليس من الصدف ان تتفوق سويسرا في صناعة الساعات .. انها صناعة الدقة . صناعة الزمن . صناعة الارقام والثروس والعقارب .. صناعة قطع الفيار الدقيقة .. صناعة الرقيب الحسيب الذي بعد عليك أنفاسك .. ودقاتك .. وتربطه في يدك .. او يرتبط بك من يدك ..

ان حياة الرجل السويسرى كالساعة منظمة ..

فمن المسالوف جدا ان تجد في البيت السويسرى جدولا على الحائط .. هذا اذا انطبعت افكاره على الحائط في ساعة ندم أو قرف – وهذا الجدول نصه : الاثنين : اجتماع اللجنة المدنية .. الثلاثاء : اصلاح الزحافات .. الاربعاء : كوتشينة .. الخميس :

جمعية خيرية .. الجمعة : لجنة الحرب .. السبت : السينما مع المدام .. الاحد : الذهاب الى الجبال ..

ولو حدث أنك زرت أحد أصدقائك – ان كان في الامكان أن يكون لك أصدقاؤه سويسريون لاي سبب – في يوم ١٣ مايو سنة ١٩٥٠ الساعة الثالثة و ١٤ دقيقة ، وذهبت الى نفس الموعد بعد عشر سنوات فستجد صديقك في نفس المكان .. من البيت .. على الكرسي المجاور للنافذة متصفا بينما زوجته تروح وتجيء في البيت .. وكل السويسريين يتمددون في بيوتهم وينتظرون فالبيت للسيدة وليس للرجل السويسرى أى دور أو وزن في بيته .. فهو عندما يدخل من الباب الخارجي ينتقل الى دولة أخرى ذات سيادة عليه .. الرجل وزوجه في تكسيرة واحدة .. وارتدى كل منهما ملامح الجد والوقار .. مع انه لا يوجد ما يبرر ذلك .. فهو رجل ظل يعمل طول النهار كالنحلة .. لا يكف عن الانتقال من مكان الى مكان في نظام ميكانيكى دقيق . وهي ايضا لم تكف عن الحركة من البيت الى الدكان .. ومن الدكان الى السوق ومن السوق الى البيت .. وفي كل غرف البيت .. تضع طبقا هنا .. وزهرة في النافذة هناك .. وعينها تلتقط ذرات التراب على الكراسى وعلى الكتب .. وتتفح وتبيض .. والذي يرى الزوجة السويسرية وهي تنفض التراب يخيل اليه أن السويسريين قد عدلوا نهائيا عن استخدام الاطباق وأنهم سوف يأكلون على الارض .. فالارض كالصينيى النظيف .. وكل شيء في البيت يدل على اهتمام غير عادى .. مع أن هذا الاهتمام يحدث كل يوم ..

اذن هذه الزوجة في نشاطها ساعة محددة ودقيقة .. والزوج يتطلع هو أيضا الى هذا الموعد .. انه موعد الغداء .. اللذين طبعا وجاه موعد الغداء ودخل الزوج وفي نفس اللحظة التي يدخل فيها الزوج تخرج الزوجة من المطبخ .. كل شيء يتم بهدوء .. هو يدخل وهي تخرج .. هو يقعد وهي تقدم الطعام .. هو يقترب من المائدة وهي أيضا .. هو يأكل وهي تأكل .. هو يمضغ وهي تمضغ .. كأنهما يعزفان لحنا غير موسيقى على نوتة موسيقية .. أو لعل الرجل – خصوصا الرجل – عندما ينظر الى السقف من حين الى حين يبحث عن المايسترو الذي يضبط حركة الطعام من الطبق الى القم .. ومن القم الى المعدة .. أما الزوجة فتكتفى بمتابعة الزوج ولا داعي طبعا لان تنظر الى رجلين في وقت واحد .. فرجل مكشتر أثناء الأكل يكفى جدا !

أما لماذا هو مكشّر .. وهى أيضا ؟

هذا السؤال معناه : لماذا هو سويسرى .. وهى أيضا ؟

فالسويسرى ليس باسم الوجه . انه منتجهم . جاد . ناشف . ضخم . ولكنه منظم فى جميع الحالات . أنا لم أر سويسريا يبكى . لانى لم أجد هذه الفرصة السعيدة . ولانه من الصعب على السويسريين أن يفعلوا . ولان يديه مشغولتان فان نزلت دموعه اضطر أن ينزع احدى يديه من العمل الذى يؤديه ويبحث عن منديل .. وكل هذا يؤدى الى ارتباك عام .. ولان الدموع اذا نزلت من عينه يجب أن تنزل بترتيب . ويظهر أن السويسريين لم يفلحوا فى ترتيب دموعهم ، ولذلك عدلوا عن البكاء .. لانه أما أن تكون عملية البكاء منظمة الدموع ، أو .. لا يكاء .. فلا بكاء !

الرجل السويسرى حريص على أن يكون فى حاله ..

فالدنيا كلها تتمزق وتنهار فى حروب من مئات السنين وتظل سويسرا مزدهرة غنية متماسكة وسط عالم منهيار .. واذا حاول انسان أن يهرب ، فالى سويسرا .. اذا حاول أن يتجسس فالى سويسرا .. اذا حاول أن يودع أمواله بعيدا عن الايدى والعيون ففى سويسرا ..

وسويسرا هى البلد الوحيد فى الدنيا الذى لا يعرف الخوف .. تصور شعبا لا يعرف الخوف . أناس لا يخافون من اليوم ولا من الغد .. لا يخافون لا من الفقر ولا من الجوع ولا من المرض ولا من البطالة .. ولا من الحرب !

أجيال وراء أجيال كلها لا تعرف الخوف ..

لا تعرف الفزع الذى يدق على الباب .. لا تعرف الحط التليفوتى الذى ينقطع لان أحدا يستمع الى التفاهات التى تقولها لاي انسان ..

أناس لا يعرفون الشارع لانهم طردوا من أعمالهم .. لا يعرفون الاحالة على المعاش الا فى الثمانين .. لا يهتدى اليهم الموت الا فى التسعين .. يظل الموت يطاردهم فى الجليد وفى الوديان .. ثم يلهث وراءهم ولا يدركهم الا بعد أن يكون أى مصرى ولد معهم فى نفس اليوم قدمات من عشرين عاما !

لقد التزمت سويسرا الحياد بين المشاكل الدولية .

والتزمت الحياد بين مشاكلها الداخلية .. فالدستور ينص على أن تظل الخلافات القومية كما هى .. ففى سويسرا أربع لغات : الالمانية والفرنسية والايطالية والرومانش - وهى اللغة السويسرية التى يتكلمها عدد قليل من الناس - ولكن الدستور صريح فى أن يحتفظ كل انسان بلونه ودينه ولغته .. وعنده قضايا لا يناقشها أحد من الناس !

هذا قرار اتخذته الشعب السويسرى سنة ١٩٢٨ : أن تبقى على وفاق مع خلافاتنا !

وبعض المفكرين تأثروا على هذا الحياد المزعوم من جانب سويسرا .. فهم ليست عضوا فى الامم المتحدة . فكأنها بذلك ليست عضوا فى أسرة - ليس لها دور . ليس لها وزن . ولا موقف . ومن الضرورى أن تكون عضوا له موقف ووزن .. وهذا رأى !

ولم يتفق السويسريون على معنى الحياد ..

وانما اتفقوا على أن يقول كل انسان رأيه .. ويتمسك به .. أما الاتفاق على رأى واحد فى هذه الخلافات ، فليس ضروريا .. والضرورى أن يختلفوا .. والذى ليس ضروريا أن يتفقوا على معنى الحياد ..

وقديما سألوا الحكيم كونفوشيوس : ما الذى تفعله لو كنت امبراطورا للصين ؟

فقال : أحدد معانى الكلمات !

ولذلك فمن المستحيل أن يكون كونفوشيوس امبراطورا لسويسرا !

هذا اذا كان من الممكن أن يكون هناك امبراطور على الاطلاق .. لان السويسريين يؤمنون بالانتخاب وحرية الرأى .. وحرية اختيار الحاكم .. ولا يرون أن الفارق بينهم وبين الحاكم كبير .. واذا اختاروا الحاكم اختاروه هو وحده .. فلا حاشية ولا امراء ولا خلفاء .. بل أن زوجة الحاكم نفسه .. أى رئيس الدولة ليست لها صفة فهم مجرد « مدام » .. ولا زوجة الحاكم ولا كل النساء لهن صوت فى الانتخابات .. فالمرأة لا تعطى صوتها .. والمرأة تتقاضى اجرا أقل من أجر الرجل . اذا اتفقا فى كل شىء : المؤهل .. والوظيفة .. وساعات العمل !

والسبب هو : ايهما ينتج اكثر ..

في سويسرا يقولون : الرجل ..

ونحن لم نتفق على رأى فى هذه القضية .. لاننا لسنا سويسرا .. ولا يمكن أن نكون !

ولكن لا شئ يتم فى البيت او فى الفيلا او فى السارخ دون سؤال الناس عن رأيهم ..

مثلا : اذا فرضنا أنك صاحب بيت فى سويسرا .. ولسبب ما

قررت أن تهدم هذا البيت .. وبقولك تقيم بيتا آخر .. لا تنس أنك سويسرى وطنى مخلص .. وبقولك موجودة فى البنوك السويسرية وقد جاءتك من طريق حلال .. وبهذه الفلوس تريد أن تهدم بيتا وتقيم بيتا آخر ..

وسوف تلجأ الى المهندسين والخبراء لهدم البيت .. وستلجأ الى المهندسين والعلماء لبناء بيت آخر ..

ومع حسن نيتك فانك لا تستطيع أن تهدم بيتك .. وأن تبني بيتك .. فهناك شروط كثيرة ..

أولا : يجب أن يتأكد الشعب السويسرى فى هذه المدينة أن بيتك يجب أن يهدم .. وأنك لست صاحب نزوة ..

وإذا فرضنا أنك صاحب نزوة وتريد أن تهدم بيتك وتبدد أموالك ، فما دخل الناس ؟

الناس فى سويسرا لهم دخل : فليس من حقك أن تزعجهم من غير مناسبة .. تهدم وتبني .. وليس من حقك أيضا أن تطرد السكان بذوق لائق صاحب نزوة مالية ..

وإذا فرضنا ان بيتك هذا يستحق الهدم فكيف تهدمه .. لا بد أن يتأكد للشعب السويسرى أن البيت يجب أن يهدم لانه قديم أو منهار .. ولأن الخبراء أكلوا بصورة علمية أن هذا البيت يجب أن يهدم .. فاذا تقرر ذلك أجريت أعمال هندسية كثيرة من بينها دراسة طبيعة التربة .. وعملية جس التربة تتم بالآلات حديثة .. ويتولاها مهندس أو عامل ماهر ..

ولا بد من استفتاء الشعب على بناء البيت : هل يبني من دور أو دورين أو ثلاثة أو أربعة .. وعلى الجيران أن يذهبوا ويدلوا بأصواتهم فهذا يعترض لان إقامة هذا البيت ستفسد منظر الجبال والغابات .. أو أن هذا البيت اذا ارتفع سوف يحجب الشمس .. أو يمنع الهواء

.. ولا بد أن تأقى هذه الاعتراضات اهتماما عاما .. ولم يحدث كثيرا ان أدت هذه الاعتراضات الى تعجيل بناء عمارة من العمارات .. لان هذه الاعتراضات لا قيمة لها .. ولكن لانه يندر أن يهدم بيت ويقام بيت آخر فى مكانه دون أن يكون هناك أسباب وجيهة جدا لهذه العملية المعمارية ..

وقد سمعت من سفيرنا فى سويسره محمد توفيق عبد الفتاح أن السفارة أقامت جناحا ملحقا بالسفارة .. وبعد أن تم بناء الجناح فوجئت السفارة بأن أحد الجيران السويسريين يشكو السفارة الى القضاء لان السفارة أقامت جناحا .. فهذا من حقها مادام الجناح قد استوفى كل الشروط الفنية .. ولكن لان لون هذا الجناح يؤذى العين .. يؤذى عينيه ..

وقد رأيت هذا الجناح .. وفتحت عيني فيه وفى ألوانه ولم أشعر بأى أذى ..

ولكن اندى صاين هذا الجار السويسرى هو أن الجناح قد طلى باللون الابيض الرمادى .. وهو لون غريب عن ألوان كل البيوت المجاورة .. فهذا اللون صارخ .. تماما كالصوت الصارخ الذى يوجع الأذن .. فهذا اللون يؤذى العين .. فهو جزء من الضوضاء الملوانية ..

مادام الناس يريدون الهدوء الصوتى فى بيوتهم ، فهم أيضا يريدون الهدوء اللونى والضوئى لعيونهم ! ..

وأنا احبب هذا السويسرى عشرين مرة .. مرة واحدة لان له رأيا .. ومرات لانه مصر على هذا الرأى ولم يغير موقفه منذ ثلاث سنوات !



وإذا تحدث اليك في موضوع أدبي أو فلسفي أو تاريخي ..  
بالفرنسية أو بالانجليزية أو بالألمانية فهو رجل شاعري .. وهو مفكر  
واضح .. وهذا الحماس والوضوح يجعلك تنسى أنه سويسري ..  
ولكن عينه التي لا تبعد كثيرا عن النظر الى الباب تؤكد لك أنه من  
الضروري أن تنهض .. لانك سائح ولانه موظف .. ولانك مصري  
ولانه سويسري .. ولانه سويسري غير عادي ، ولانه من الضروري  
أن تشجعه على ذلك فلا يكون كرمه عقوبة يستحقها وذلك بأن تسهر  
عنده حتى الصباح .. مثلا !

وهذا الرجل أحمد هوبر مختلف عن السويسريين في شئ، جوهرى  
جدا : انه يقنعك .. ولا يحاول أن يعلمك !

ومعظم السويسريين لا يهمهم كثيرا أن تقتنع .. انهم مثل  
المدرسين يقول كل واحد منهم كلمته .. ثم يمضي .. او مثل رجال  
الدين كل واحد ينشد لك موعظته ثم يرفع يديه الى السماء ليشتهز  
انت فرصة اتصاله بالسماء ويمضي لحالك .. على الارض !

وهذا سر المتعة التي لا تنتهى في الحديث الى المواطن السويسري  
أحمد هوبر !



وعندما ذهبت الى أحد الساعاتية في سويسرا .. وما أكثرهم ..  
أنهم يشبهون مطاعم الفول في القاهرة .. ومحلات الحلويات في  
دمشق .. وقدمت له ساعتى أريد لها زجاجة جديدة .. وأخذ  
الرجل الساعة ووضعها في درج .. وأعطاني وصلا .. وقال : ليست  
عندى هذه الماركة !

قلت : لم افهم ..

قال : اننى لا اصلح كل انواع الساعات ، ولذلك يجب أن تذهب  
الى المحل الخاص بهذه الماركة ..

ومد يده الى التايفون وسأل أحد المحلات .. او هكذا فهمت  
لانه يتكلم باللغة السويسرية التي هي خليط من الألمانية واللغة  
الرومانشية ..

وأعطاني عنوان محل آخر ..

وذهبت .. والمحل الآخر أعطاني ورقة على أن اعود في اليوم  
التالى .. لان زجاج هذه الساعة يجب أن يستحضر من المصنع .



## هذه النقطة الجميلة !

المشاهد القريبة في سويسرا ان تجد احدا كريما متحمسا  
شهما .. وتحسن لأول وهلة انه ليس من اصل سويسرى .  
وانه لابد ان يكون اجنبيا .. مع انه لا يوجد شئ اسمه  
« الاصل السويسرى » .. فالسويسريون يتكلمون الفرنسية  
ولا يشعرون ان فرنسا هي وطنهم الام .. ويتكلمون الألمانية ،  
والمانيا ليست وطنهم .. والايطالية ، وايطاليا ليست وطنهم  
الاول .. انهم خليط .. او هم سلطة : طماطم وخس وخيار ..  
في اثناء من الكريستال النظيف الابيض .. ولكن عناصر السلطة  
تعيش معا ، ويتكون منها هذا الطعام الشهى ، ولكنها لا تختلط  
تماما .. وانما كل واحد يحرص على هذا الخلاف الواضح ..

ولذلك اندهشت عندما دعانى مسيو احمد هوبر الصحفى  
السويسرى الذى أسلم وتزوج من سيدة مصرية سمراء رقيقة .. انه  
شاب فى غاية الحيوية والحماس والدقة .. فى غاية السويسرية ..  
وهو واسع الافق .. وعلى المام دقيق بقضايا العالم السياسية ..  
وبقضايا الشرق .. وعلى فهم كاف بتاريخ الاسلام والمسلمين .. وهو  
رجل كريم خدوم .. او أصبح كريما .. وهو على خلاف السويسريين  
تجده هو رب البيت .. هو الذى يدعوك الى الطعام .. و « يعزم »  
عليك .. ويكاد من شدة حقاوته بك أن ياكل لك أيضا ..

ومن المؤكد أنه لا يريد منا أن تنهض بعد الأكل مباشرة .. هذا  
مؤكد .. ولكن نظراته طاردة .. انها تكاد تسحب الطبق من يدك  
وتلقى بك على الباب الذى يفتح تلقائيا بمجرد اقترابك منه .. وعندما  
تسقط على السلالم النظيفة .. وتتماسك وتخرج من الباب النظيف  
الى الشارع النظيف .. وتنطلق الى شقته تجده أنه قد أطفأ التور ..  
ودخل فى الفراش ليصحو بعد ذلك بخمس ساعات و ١٢ دقيقة !  
لم يحدث شئ من ذلك .. هذا أكيد .. ولكن ترجعتى الدقيقة  
لنظراته السويسرية تقول ذلك ..

والمصنع خارج مدينة برن .. ثم ان ماركات الساعات السويسرية لا عدد لها .. ثم ان من حق أى انسان ان يصنع ساعة وان يضع عليها الماركة التي تعجبه .. اما الماركات المشهورة فهي لا تصنع كل هذه الساعات التي تحمل ماركتها .. وانما الشركة الكبرى تعطى لشركات صغيرة حق استغلال هذا الاسم مقابل نسبة مئوية تنفق عليها ..

وفي اليوم الثاني عدت ..

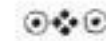
ووجدت الزجاجة ، وسألت كيف يمكن خلع زجاجه وتركيب زجاجه اخرى ..

ورأيت كيف .. وهنا أدركت ان الساعاتية عندنا هم اناس يصلحون بوابير الجاز .. او البلاعات .. فلا توجد عند الساعاتية في سويسرا : لا سكاكين ولا كمشات .. ولا احد يستخدم أسنانه في فتح الساعة .. لا لان صناعة اطقم الاسنان لم تتطور الى هذه الدرجة ، ولكن لان هناك آلات دقيقة رقيقة .. تلمس الزجاج فيخرج كما تخرج الشعرة من العجين .. بنعومة وبلا ضوضاء ..

ثم ان كل انسان قد تخصص في شيء ..

ثم ان كل شيء يتم في هدوء الساعة وبرودة عقاربها ..

واهم من ذلك ان السويسريين طريقتهم الخاصة في الاهتمام بك والترحيب بخدمتك .. فهم لا يصاقحونك بحرارة .. ولكنهم يحترمونك بحرارة باطنية غير واضحة على الوجه او في الايدي التي تضغط .. وانت كسائح لا تطمع في اكثر من الخدمات المجانية .. واعتقد انها بحاجة منك ان تطلب من الناس ان يخدموك مجانا .. وان يكونوا سعداء ايضا لذلك !



وإذا كانت سويسرة بلدا لا يعرف الخوف .. فهي أيضا بلد لا يعرف التوسع ..

فالارض محدودة من مئات السنين ..

وكل شبر يمكن استغلاله قد استغاه السويسريون .. ولذلك فهم يحاولون تجويد التربة راسيا .. بعد ان ضاقت بهم افقيا ..

وهم لا يريدون أى توسع سياسى أيضا ..

والتوسع الوحيد الذى يحرص عليه السويسريون هو التوسع في الخدمات وفي استثمار أموالهم في الخارج .. ولذلك فالمورد الوحيد لاقتصادهم كله هو التجارة .. التصدير الى الخارج والاستيراد والخدمات ..

وسويسرا قد تطورت في صناعات كثيرة ، كما انها اول دولة في العالم استخدمت الكهرباء في ادارة كل أجهزتها تماما ، وكان ذلك في سنة ١٩٤٢ ..

وهناك تواريخ اخرى مشهورة في سويسرا ..

ففى عام ١٨٠١ أقامت أول مصنع للنسيج ..

وفي عام ١٨٢٦ أصدرت أولى عملاتها المصرفية ..

وفي عام ١٨٥٠ أنتجت أول ساعة لا تملأ بالمفتاح ..

وفي عام ١٨٦٧ كانت أول من أنتج اللبن المسحوق ويحمل اسم نستلة ..

وفي عام ١٨٧٧ أنتجت الساعة ذات الزنبرك ..

وفي عام ١٨٩٧ أنتجت الحرير الصناعي ..

وفي عام ١٩٢٣ كانت شركة ساندوس الطبية أول من توسع في استخدام الانتشاب الطبية ..

وفي ١٩٢٥ عرف العالم أول إنتاج للفيتامينات يحمل اسم شركة لاروش العالمية ..

وإذا كان السويسريون عندهم جنون النظافة .. فعندهم أيضا جنون الخوف من المرض . ولذلك فهم يراعون القواعد الصحية بوعى .. على عكس الأمريكان الذين يعرفون ان هناك مرضا .. أى مرض .. ويواجهون احتمال المرض بتعاطى الفيتامينات والعقاقير الوقائية .. ولا يفكر الأمريكى في المرض الذى يتقيه .. وانما هو يتقى كل الامراض الممكنة .. فمن المؤلف ان تجد الأمريكى يتابع جيوبا واقراصا في الصباح وفي المساء .. ويترك ليداه الاقراص ان تتولى حراسته ضد الميكروبات .. أية ميكروبات .. اما السويسرى فهو يعرف الامراض المنتشرة ويتقيها بحساب لا لانه يخيل فقط .. ولكن لانه دقيق جدا ..



ليست صحته هو فقط .. ولكن صحة الحيوانات الموجودة في البيت .. الكلاب والقطط والابقار وغيرها .. خصوصا أن هناك بعض الأمراض المشتركة بيننا وبين هذه الحيوانات .. وهذه الأمراض موجودة ومعروفة ، والوقاية منها معروفة أيضا . ومرض قطة أو كلب مثل مرض أى طفيل يلقى نفس الاهتمام والهموم والسؤال عن صحته كأي كائن حي .. ووفاء قطة كوفاء انسان . أما إذا حدث أن داست إحدى السيارات قطة . فهذه كارثة للشارع كله .. وأحيانا للمدينة من أولها لآخرها .. ويتوقع الناس أن يروا صورة الحوادث في التليفزيون وقد أمسك كل واحد منهم ورقة وقلما استعدادا للتعليق على الحادث .. أو على التليفزيون أو على طلب البرلمان للتحقيق في هذا الأمر الخطير ! .

أعرف صديقا مصريا جاء الى سويسرا من ألمانيا وتعلق أطفاله بإحدى القطط . فاشترى القطة ، وبعد أسبوع واحد من إقامته في سويسرا استدعاه البوليس لامر هام . التليفون يقول : لامر هام .. والأشارة من البوليس تقول : لامر هام .. ومنظر البواب وهو يرشد رجل البوليس الى شقة الصديق يؤكد : انه هام و كارثة وطنية ! ..

وذهب الصديق المصري .. وفوجيء بأن كل الاحتمالات التي دارت في رأسه لا علاقة لها بأسباب الاستدعاء الى البوليس ، فضابط البوليس يشير اليه أن يجلس لكي يشرح له : ما الذي فعلته القطة في الحديقة ؟

- ما الذي فعلته ..

- انها حفرت في الحديقة .. ثم تركت بعض مخلفاتها .. وانت تعرف ..

- اعرف .. ماذا في هذا ..

- في هذا كل شيء .. ان القطة مريضة ياسيدي .. عندها اسهال . تصور ! ..

- أستطيع أن أتصور . فما الذي أفعله أنا .. أنا شخصيا عندي اسهال ..

- أفهم ذلك .. ولكنك لا تستطيع أن تفعل ما فعلته القطة ..

- طبعا .. لا أفعل ..

- لماذا ؟ لان هناك مكانا مخصصا لذلك في شقتك .. فأين اذن المكان المخصص للقطة ..

- هناك مكان .. ولكن القطة لم تفعل ..

- ولماذا لم تفعل .. لانها قطة غير متعلمة ..

- غير متعلمة ؟

- طبعا .. القطط يجب ان تتعلم اين تأكل واين تشرب .. واين تتخلص من كل شيء بعد ذلك ..

- ان هذه القطة قد اشتريتها ..

- كان يجب أن تسأل عن عادات هذه القطة قبل أن تشتريها حتى لا تقف هذا الموقف .. الخ ..

باختصار : هذه القطة عندها اسهال اضطرها الى أن تذهب الى الحديقة .. ولسوء الحظ رآها البواب .. وذهب البواب وأخبر البوليس .. لان القطة مريضة . ومرض القطة مسألة صحية ، ولا بد أن تعلم السلطات الصحية بذلك .. حتى لا تنقل العدوى الى بقية الحيوانات والاطفال ، والبواب يؤدي بذلك واجبا وطنيا ، و يراه كل الناس موقفا طبيعيا .. وهو لم يضع وقته في الكلام مع صاحب القطة .. فصاحب القطة ليس البوليس وليس الادارة الصحية .. ثم أن صاحب القطة متهم ...

وانصرف الصديق المصري ..

وفي البيت جاء الطبيب ، وأخذ عينات من مخلفات القطة . وطلب التحفظ على القطة . وأخذ القطة في صندوق . وبعد التحاليل تبين ان القطة عندها اسهال حاد .. لانها قطة قد اعتادت على الطعام المسلوق .. فلما أكلت الارز بالسمن واللحم بالسمن .. ذابت أحشاؤها في الحديقة ..

ولا بد من علاج للقطة ..

ولا بد قبل العلاج ان تتعلم القطة كيف تأكل وتشرب ، ولذلك يجب ان تذهب القطة الى مدرسة ، وعلى حساب صاحبها .. وذهبت القطة الى المدرسة . وقررت المدرسة ان القطة في حاجة الى شهر ..

وهنا قال صاحب القطة : انا لا أريدها ..

فكان رد ناظرة المدرسة : اذن ستظل القطة هنا تأكل وتشرب على حسابك .. وتتعلم أيضا الى ان نجد لها احدا يؤويها في بيته ، وضحك صاحب القطة وهو يقول : افرض انى اخذت القطة واطلقنها في الشارع .

وضحكت ناظرة المدرسة لهذه النكتة وقالت : في هذه الحالة لن يسكت البوليس على ذلك ولا الصحف .. وربما ادى ذلك ..

ولم نقل الى طرده من سويسرا - وهذا ممكن ولهذا السبب الذى لا يتسم بالانسانية ! ..

ولم تعد القطة الى البيت لصعوبة الاحتفاظ بها .. فليس من السهل ان تأكل القطة وحدها الطعام المسلوق في بيت يأكل فيه الاطفال الارز المغفل وطواجن اللحم بالسمن .. ومن الصعب تربية قطة في بيت به اطفال كثيرون لا يدركون خطورة الموقف القططى في سويسرا الذى قد يؤدى الى سوء العلاقات بين شعبنا والشعب السويسرى ! ..



وسويسرا بلد من الناحية الفنية مجدبة . فلا احد يعرف اسم فنان كبير في أى نوع من فروع الفن ..

ربما كان المهندس العالمى لوكوربوزيه هو اشهر سويسرى في دنيا المعمار - وهو يأسف لذلك اشد الاسف . لا على انه مشهور ، ولكن على انه سويسرى .. هكذا جاء في مذكراته ، ولم يشرح لنا سر هذا الاسف ..

وربما كان المثال بول كلوى من اعظم صانعى التماثيل في العالم ، وهو سويسرى ..

وقد حدث اثناء تصوير فيلم « الرجل الثالث » في سويسرا من اخراج كارول ريد وبطولة أورسون ويلز ان خطرت للبطل عبارة جميلة ، فأضافها للفيلم . أما العبارة الصادقة فتقول : ان عصر النهضة الإيطالية الذى ارتكبت فيه مئات الجرائم ضد البشرية قد أسفر لنا عن عباقرة الرسم والنحت في التاريخ .. ولكن مئات السنين من الهدوء والسلام في سويسرا قد أسفرت عن اختراع الساعة التى يخرج منها البلبل ويعلن عن الوقت ! ..

ولكنها في عالم الادب احسن حالا ..

فقد ظهر في سويسرا اديبان عظيمان بعد الحرب . وهذان الاديبان من الالمان السويسريين . وهما يكتبان باللغة الألمانية . وهما لذلك يحركان الادب الالمانى والاوروبى وهما قابعان في الجبال العالية ..

وقد قابلت هذين الاديبين ..

وترجمت لكل منهما .. ايضا .

الاديب الساخر فريدريش ديرنمات . فقد ترجمت له مسرحيات : رومولوس العظيم . وقد ظهرت على المسرح وقام بطاوتها صلاح منصور وزوزو نبيل واخرجها سمير العصفورى .. وترجمت له مسرحية « هبط الملاك في بابل » .. تم مسرحية : « السمات » التى ظهرت على مسرح الجيب - اى في المكان الذى لا يناسبها . وبالاخراج الذى لا يتفق مع طبيعتها !

وقد لقيت ديرنمات في بيته .. والتقيت بزوجه .

وتحدثت اليه طويلا في الادب العالمى وفي ادبه .. وهو رجل رفيق .. يبدو سمينا فصيرا .. ولكن بعد لحظات من الجلوس اليه تجد السخرية في عينه وفي عبارته .. واذا ضحك فهو يضحك من حنجرته ومن بطنه .. وهو رسام وموسيقى وشاعر ومهندس معمارى .. وابن فمبسس .. وهو من احسن ادباء اللغة الألمانية ..

اما ماكس فريش .. فهو اهدا واعمق .. وسخريته فلسفية .. وقد ترجمت له مسرحية « امير الاراضى البور » ..

ومن القريب انى عندما ذهبت الى فريدريش ديرنمات قدم لى عشرات من فناجين القهوة .. ولم اتبه الى هذا الاسراف . وظننت انه هو الذى يحب القهوة كثيرا . ولما سألته عن السبب قال لى : السم تحبون القهوة هكذا .. فكلما فرغ فنجان صببت لك غيره ؟ ولما سألته عن الكتب العربية التى قراها .. اعترف لى هو ايضا - كما اعترف لى قبل ذلك في القاهرة البرنو مورافيا وسومرستوموم - انه لم يقرأ غير ألف ليلة وكتابا للامير ارسلان .. وان معلوماته عن العالم العربى مع الاسف قليلة ! ..

اما ماكس فريش فقد زرتة مع سفيرنا محمد توفيق عبد الفتاح .. وكان الرجل فى انتظارنا . فى غاية الصحة والحيوية . وهو يؤكد



من القاعدة القوية الباردة

الى التطبيق الحار ..

من موسكو ..

الى هافانا !

لك انه في صحة جيدة ولا يشكو من أى مرض .. وقد اختار البيت الذى يقيم فيه على ارتفاع مدروس .. لانه عند هذا الارتفاع يكون الهواء منعشا والضغط معقولا .. وانسب ارتفاع لنشاط العقل الانسانى . وكان قد أعد لنا زجاجة من الويسكى . واعتبرنا . واعتبر هو أيضا لنفسه لانه لا يشرب نهارا ..

وظهرت فتاة تروح وتجيء . ليست جميلة . فقال ماكس فريش : انها خطيبتى ..

وفهمت .. ان كلمة « خطيبة » هى لقب قد اعطى لهذه الفتاة بمناسبة تشریفنا ..

ومن مئات السنين لم تعرف سويسرا ادبيا واحدا له قيمة علمية .. ولا مفكرا واحدا بعد جان جاك روسو له أى وزن دولى ..

ان سويسرا ارادت ان تكون منطوية على ساعاتها وعلى ارضها وعلى مقشاتها .. وعلى خلافاتها الثابتة .. وان تغلق عينها عن العالم .. وان كان العالم لا يعلق عينه عنها .. ضيقا وحسدا . وان تنطوى على هدوئها وطمأنينتها .. والا تمد يدها لتصاقح الا من تعرفه .. وحتى لا تمد يديها فانها حريصة على الا تعرف احدا .. ويكفى ان يعرفها الناس .. وهى تريد ان يعرفها الناس عاصمة النظافة : نظافة الارض والبيت واليد وهى البيئة التى لا ينشأ فيها فن ولا ادب . فالادب كالنبات ينمو فى الطين ..

ويبدو ان بعض السويسريين قد استورد كميات كبيرة من الطين تكفى لان ينشأ فيها عملاقان هما : ديرنمات .. وفريش !

من الكافيار الى الأناناس وبالعكس

:: سهر الليل :: ليلاس ::  
www.liilas.com/vb3



هنا يتجه الى اليسار فقط .. طبعا لا .. فهنا يمين ويسار والناس لهم أيضا يمين ويسار .. ولكن اليسار في الفكر ..

والناس يروحون بخفة .. غريبة .. واتزان غريب .. وقد ارتدوا شيئا من الفراء على الرأس .. وأحذية غليظة وتغطوا بسالطو .. احتاطوا تماما للشتاء .. ولكنه ليس شتاء عندهم .. انه يوم من أيام السنة الدائمة الشتاء .. والارض من الطين .. ولا بد أن الضحكات التي تنعالي ورائي وأمامي بسبب أناس سقطوا على الارض .. مثل .. انهم لم يعتادوا على المشي في شوارع موسكو المطينة .. لا هم اعتادوا .. ولا حتى هذه الاحذية التي يلبسونها أحذية .. انها مثل الجوارب .. رقيقة .. ولا تمنع تسرب الماء .. أما البرودة فقد تسللت واستقرت في العظام .. وأفقدتني الاحساس بالبرد .. ولو أمسك انسان سكيننا وقطع أنفي فلن أشعر .. ولو قطع أذني فلن أشعر .. ولكن من المؤكد انه لو قطع لساني فسوف أصرخ .. لأن لساني في فمي .. وفمي دافئ .. أى أن أعصابي متنبهة ..

ولا أعرف ان كان الروس يضحكون لهذه الالعاب البهلوانية التي تقوم بها في الشوارع .. أو انهم اعتادوا عليها .. أو انهم يحاملون يضحكون في سرهم .. أو انهم بدأوا يضيقون بها ويفضلون عليها الشقيلة المدروسة ..

ووصلت الى الميدان الاحمر .. من المؤكد أنه ميدان ضخم واسع .. ولكنه ليس أحمر .. وهناك فوق مبنى الكرملين الضخم الذي يبدو مثل شمع هائل توجد نجمة حمراء .. واقتربتنا من الميدان .. ومشينا في الميدان .. وأشاروا لنا بأن هذا المبنى هو الكرملين .. وهذا المبنى الى اليسار هو محل «الدوم» أكبر المحلات الاستهلاكية في موسكو يسع كل ما يحتاجه المواطن .. وأن هنا قبر لينين .. وأنه لا بد ان نجى في ساعة مبكرة من الصباح لنقف في الطابور ساعة أو ساعتين لنلقى نظرة على صانع الثورة السوقية لينين الذي ولد من ٩٩ عاما .. والذي عند ما بلغه أن أخاه قد اعدم لأنه تأمر على القيصر أقسم ان ينتقم .. وقد انتقم وانتقم من هذا القيصر ومن عشرات الالوف من القياصرة والحاشية في روسيا وفي كل العالم !

بعد ذلك كان لا بد أن أعود الى الفندق .. لأنه لا شيء يمكن عمله عند منتصف الليل في موسكو .. لا شيء .. لا المشي في



## كشرك.. دائما!

**كان** الليل من نوع غريب .. باردا جدا ولكن ليس مظلما تماما .. ولا هواء ولا مطر .. ولكن برودة من طين .. أو طين بارد .. والناس اشباح .. اجسام سوداء ضخمة تروح وتجيء بسرعة ودون أن تصطدم بأحد .. وطبعا دون أن يتسائند أحد على أحد .. أو يسقط أحد على الارض كما حدث لي مرتين وانا اتجه من لوكاندة اوكرانيا الى الميدان الاحمر الشهير .. ومن المؤكد انني في هذه الساعة من الليل وفي هذه الدورة والظلام والسرعة .. لن أرى الميدان احمر .. ولن أرى الميدان .. ولكنها فكرة خطرت لي قبل أن أتأكد من غرفتي ان أذهب الى الميدان الاحمر .. لاشاهد الكرملين الذي رأيت صورته وقرأت عنه .. ولم أراه ليلا وان أراه نهارا .. فهمت أحداث التاريخ الحديث كلها .. فمن هنا خرجت أكبر ثورة عرفها الانسان في القرن العشرين ..

الفندق دافئ .. والناس كثيرون ومن هياثات مختلفة أو من كل الهياثات .. والمشرقات على الفندق سيدات كبيرات في السن .. وشيء من الصمت يربط الناس ببعضهم البعض .. ربما كان سبب الصمت أن احدا لا يعرف لغة أحد .. أو لا داعي للكلام .. كان الناس قالوا كل ما عندهم وجاءوا هنا ليلتلعوا السننهم أو ليغسلوها أو ليقطعوها أو يستبدلوها .. صمت .. حاولت أنا شخصيا أن أقول .. ولكن لم أجد ما أقوله .. ما الذي اريده ؟ لا شيء .. ما الذي احتاجه ؟ لا شيء .. ولمن أقول ؟ لا أحد .. إذن فالصمت سلوك طبيعي ..

الباب ضخم .. المدخل ضخم .. كل شيء كبير وغليظ وعريض وطويل ..

واتجهت الى اليسار .. الى يسار الفندق .. وليس كل شيء

الشوارع نزهة .. ولا الذهاب الى المسارح ممكن .. ولا دار  
الابرا .. فهذه اماكن مقدسة ومحجوزة فترات طويلة مقدما ..  
ولا بد من تدبير وترتيب .. ولا يمكن الذهاب الى أى مكان آخر  
.. ما دام الانسان غير قادر على الرؤية .. فلا معنى لشيء ..  
اذن لا بد من العودة الى الفندق .. ولا بد من النوم ..

الفندق كبير وليست له مزايا خاصة .. انه فندق اوروبى ..  
فيه تدفئة واضحة .. وفي الغرفة راديو يطلق علينا الموسيقى ..  
وربما نشرات الاخبار .. لا تعرف .. فكل شيء بالروسى .. ومن  
نافذة الغرفة يمكن رؤية الشارع اوضح .. هناك أضواء ..  
وهناك كناسون - او على الاصح كناسات - وهناك جهود عضلية  
لتكديس الثلج او الطين على جانب من الشارع .. وتجيء عربات  
تحمل الطين او الثلج وتنقله الى مكان لا تعرفه .. وهذه العملية  
لا تتوقف لا ليلا ولا نهارا .. والروس يفضلون الجليد على هذا  
الوحد .. فالجليد أنظف .. ومعهم حق ..

وفي الصباح بدا كل شيء واضحا ..

الشوارع واسعة جدا .. والطين الجاف او الجليد المتسخ على  
جانب الشارع .. والملابس القائمة القصيرة الفخمة تطل منها وجوه  
شقراء متوردة .. والعربات تروح وتجيء .. والسيارات والناس ..  
او الناس كالسيارات .. او السيارات كالتناس .. كل شيء يتحرك  
لهدف .. متجه .. منطلق .. فلا مجال للتسكع الذى هو متعة في  
كل العواصم الاوربية الاخرى ..

والافطار يجب أن نتناوله في المطعم ..

ويجب أن نخلع الباطو وان تقدم لحارس البلاطى سيجارا او  
سيجارة يشكرك عليها بحماس ولهفة واضحة .. وفي المطعم يجب أن  
تقدم البونات .. فكل واحد معه عدد من البونات للافطار والغداء  
والعشاء .. وأجمل ما يمكنك ان تتناوله في الصباح هو كوب  
اللبن .. انه لبن دسم .. أما القهوة او الشاي أو البيض والزبدة  
فهى كلها اطعمة عادية .. والخبز هنا ابيض واسود . الاسود الذ

وأمام الفندق تجمعتنا .. وفي اتوبيس ركبنا .. والى مترجمة  
تحدث العربية - او نوعا منها - أعطينا أذانتنا لتسمع منها القليل  
جدا عن العاصمة موسكو .. فلسنا في حاجة الى ان نعرف منها

الكثير ، لاننا نعرف الكثير عن موسكو وعن روسيا وعن الشعب  
السوفيتى .. وكل ما ينقصنا هو بعض المعلومات عن المعالم المحددة  
.. مثل تمثال من هذا .. انه تمثال الشاعر الافريقى الاصل  
بوشكين أو شارع جوركى .. وجوركى اسم قد اطلق على كثير من  
الشوارع والمتاحف والمكتبات ..

وأروع ما رأيناه في موسكو هو متحف الرحلات الفضائية ..  
ان هناك تماتيل لتخليد يوم اطلاق أول سفينة قضاء الى العالم  
الخارجى .. يوم ٤ اكتوبر سنة ١٩٥٧ وكان أول قمر صناعى  
روسى اسمه « اسبوتنك » .. وكان وزنه ١٨٤ رطلا وقطره ٢٢  
بوصة وينطلق بسرعة ١٨ ألف ميل ويقطع مداره حول الارض في  
٩٦ دقيقة وأقصى ارتفاع له ٥٦٠ ميلا وأقرب ارتفاع له ١٢٥ ميلا .  
وقد احترق هذا القمر الصناعى يوم ٤ يناير سنة ١٩٥٨ ..

وفي الفندق تباع نماذج لهذا القمر وتطلق صوتا مشابها للصوت  
الذى كان يبعث به الى الارض من الفضاء الخارجى .. ورأيت له  
نموذجا في المعرض الدولى ببروكسسل .. وفي متحف الرحلات  
الفضائية بموسكو توجد نماذج لهذا القمر .. وللقمر الذى انطلق  
به جاجارين .. وسفن أخرى كثيرة ..

ومن الواضح ان هذه السفن ليست كبيرة .. انه سجن علمى  
ضيق .. ولكن المشكلة والصعوبة هي أن هذه السفينة كلما زاد حجمها  
ووزنها احتاجت الى قوة صاروخية هائلة لدفعها بعيدا عن جاذبية  
الارض .. ثم اعادتها الى الارض سالمة .. والتطريات العلمية  
لارسال واستعادة سفن الفضاء موجودة عند الروس والامريكان ..  
ولكن الروس تقدموا على الامريكان في صناعة الصواريخ وفي مادة  
الوقود .. ولذلك فالروس يطلقون احجاما أكبر وأوزانا أثقل ..

ومنظر سفن الفضاء لا يهزك ولا يبهرك .. لان الانسان لا يفهم  
شيئا من هذا الذى أمامه .. فهى براميل دائرية وتخرج منها بعض  
الاسلاك .. ومن المؤكد أن الروس - وهذا طبيعى - قد جردوا هذه  
السفن من كل ما يكشف عن الاجهزة العلمية المعقدة التى بها .  
فهى سر .. ولا أعرف ان كانوا في أمريكا يعرضون سفن فضائهم  
في أى معرض .. ولكنها أسرار .. وحرب معلومات .. ولا بد أن  
هناك زوارا آخرين أكثر فهما وعلما .. وواضح أن التراجمة الذين  
يفرجوننا على هذه الاختراعات الروسية يدركون أننا لا نفهم منها

شيئا .. وهذا هو سر عدم الحماس في الشرح .. فلا يمكن أن يقال انهم تعبوا من الكلام فتحن ما تزال في ساعة مبكرة .. ومن الخير أنهم فعلوا ذلك فتحن لا نفهم شيئا من هذه العمليات العلمية الباهرة ..

وفي الفندق أخيرا وجدنا شيئا نضحك له .. ولكن ضحك بحساب وبرفق .. فقد التفتت المترجمة الروسية تقول : غدا نلتقى في صحن الدار في الساعة التاسعة !

قالتها باللغة العربية طبعاً .. ومعنى هذه الجملة : غدا نلتقى في بهو الفندق في الساعة التاسعة .. وحاولت ان أفهمها ان « صحن » هذه كلمة لم يعد أحد يستخدمها .. وان الدار أفضل منها كلمة الفندق .. ولكنها أصرت على الدار وعلى الصحن ..

وعرفت بعد ذلك ان لغتها العربية من نوع خاص فعندها كلمة واحدة فقط لكل شيء : فمثلاً : التافذة .. عندها هذه الكلمة فقط .. فاذا قلت لها : الشباك لا تعرف معنى هذه الكلمة ..

وفي صحن الدار في اليوم التالي التقينا .. وركبنا الاتوبيس الساخن ودار بنا في شوارع موسكو .. وأهم ما رأينا هو محطة المترو .. انها أجمل وأعظم محطة مترو في العالم كله .. في غاية الفخامة .. ومن المؤكد أن الروس يعتزون بها .. ومن التادر أن يصور فيلم في موسكو لا تظهر فيه هذه المحطة .. جميلة وأنيقة وضخمة وتكاليها لا يمكن حصرها .. الرخام والتجف الكريستال .. وعربات المترو .. والمصاعد والسجاجيد .. تحفة معمارية هندسية لا نظير لها ..

وفي الليل ذهبت الى السيرك ..

واكتشفت اننى وقعت في خطأ فظيع .. فقد ارتديت جاكته فوق بلوفر فوق بلوفر .. وفوق الجميع بالظو .. وعلى الرغم من أن الناس حولي قد خلعوا البلاطى وتركوها في أماكنها الخاصة قبل الجلوس في أماكنهم ، فانه من الضروري أن احتفظ بالبالطو لاننى من غير كرافته .. ولا بد من البدلة والكرافته في المسرح والسينما والأوبرا وأى مكان يذهب اليه الانسان .. ولذلك تسمرت بالبالطو على هذه الغلطة الفظيعة ..

ومثل هذه الغلطة يقع فيها كثيرون من الناس في القاهرة ..

فيذهبون الى حفلات السفارة السوفيتية والدول الاشتراكية بالقميص والبطلون او ببدل من غير كرافته .. ولكنهم يجدون الدبلوماسيين الاشتراكيين في غاية الاناقة .. وبالكرافته .. لانه لا علاقة للبهلة بالاشتراكية القائمة على العلم وعلى النظام وعلى المظهر الحسن .. الذى هو أحسن دعاية للمجتمع المخطط .. للمجتمع العلمى .. وليس المجتمع المبهدل المختل من العلم ومن التنظيم ..

والروس قد برعوا في كل فنون الرقص الاستعراضى .. ودى رقص الباليه .. والباليه الروسى هو سيد الباليه فى العالم .. وتذكرت فى القاهرة الراقصة العظيمة تمارا تومانوفنا .. وأولاتوفنا .. ولييشنسكايا .. وغيرهن ..

وعلى الرغم من المظهر المتجهم الذى يبدو عليه الروس فى الشوارع - أنا لم أرهم الا فى الشوارع - فانهم فى الملاهى يضحكون من كل قلوبهم .. ككل الناس ..

ويبدو أن روسيا بعد خروتشيف قد بحجت عن نفسها قليلاً .. وقد ذابت هذ الجهامة ومعها الجليد .. ومعها ذلك الطابع القاسى الذى يتسم به الروس أو الذى التصق فى أذهاننا عن الروس الى حد ما !

وفي المطار استمعت الى الموسيقى الامريكية الحديثة : روك أند روك .. تشا تشا .. والتويست .. أيضاً .. وقد أدهشنا ذلك .. وأدهشنا أكثر ان معظم البائعات فى المطار يحرصن على البيع ويتنافسن .. وفهمنا ان كل واحدة لها عمولة على البيع ..

وقد حاول أحد الاصدقاء ان يشتري بشرط .. وكان الشرط هو أن يلتقى بالفتاة يوماً ما وفى مكان ما .. وأمسكت به وقلت له : هل تريد بدولار واحد أن تستغل مبدا الحافز الفردى الذى نادى به ليبرمان أسوأ استغلال .. بدولار واحد .. ومن أول فتاة ومن أول لحظة ..

وكانت بكتة الرحلة كلها ..

وفي الفندق تعشينا ورأينا شباب موسكو يرقصون التويست .. وصفقنا طويلاً للشبان .. ولا أعرف بالضبط ما الذى صفقت له .. هل لانهم يرقصون رقصاً أمريكياً .. ومعنى ذلك ان الفن للجميع .. وانه لا يوجد رقص أمريكى ورقص روسى .. هل أريد أن

أشجع هؤلاء الشبان وغيرهم من الشبان على الرقص .. أى رقص  
هل المفاجأة أدهشتنى .. وأنا أصفق لمن اذاب الجليد بين الاعداء ..  
الامريكان والروس .. هل أصفق لحبيبتى لاننى نسيت ان ألبس  
الكرافتة وظلمت الوحيد الذى خلع البالطو وزرر الجاكتة ورفع ياقتها  
الى أعلى حول العنق .. هل لانهم فعلا في حاجة الى تشجيع لان  
الرقص الذى أراه ليس انسيايا .. انه عنيف .. انه عملية اقتلاع  
فتاة والقائها على الارض ثم العدول عن ذلك فى آخر لحظة ..  
ربما كان ذلك .. أو كان أى شيء .. أو كان الطعام اللذيذ الذى  
تناولناه على مائدة فخمة ضخمة .. أريقت فيها الوف الاكواب  
من الفودكا ومئات العلب من الكافيار .. وكان ذلك أول الاحساس  
الحقيقى بأن هذه هى موسكو ..

كانت ساعات جميلة ولذيذة وفيها تصفيق كثير ليس له معنى  
واضح .. وفيها مصافحات شديدة وعديدة باليد ..

ولم يكن أمامنا وقت طويل نضيعه أو نقضيه فى ليل موسكو أو  
فى نهارها .. فلا بد أن نعود الى المطار .. ومن المطار نستقل  
الطائرة الضخمة الى كوبا حيث يعقد مؤتمر القارات الثلاث ..  
ونحن بعض وفوده المسافرة من القاهرة ..

الطائرة ضخمة ومرتفعة جدا .. وذات ثمانية محركات ..  
المحركات مزدوجة .. اثنين .. اثنين .. ويتحركان فى اتجاهين  
متعاكسين .. لماذا ؟ نظرية علمية تقول بان هذا اذا حدث ازدادت  
قوة الاندفاع .. لم أسأل أحدا عن هذه النظرية ولم أفكر فى كيفية  
تطبيقها ..

الطائرة من الداخل كالسفينة .. مقاعد مرتفعة ومقاعد منخفضة  
.. وعلى الجوانب من الامام غرف طاقم الطائرة .. وفى كل مكان  
لوحة شطرنج .. انها لعبة الروس .. ولماذا اختاروها لا اعرف ..  
هل لانها نوع من التكنيك الصامت المتجهم .. هل لانها لعبة تنتهى  
عادة بمقتل الملك .. يجوز وهم متفوقون فيها أيضا ..

وفى جو ملبد بالسحاب .. وفيه عواصف باردة .. أو برد عاصف  
اتجهنا الى الطائرة .. أما حقائبنا فمن المؤلف اننا لانعرف عنها أى  
شيء .. انها تدخل وتخرج وتنتقل الى الفندق دون أن نعرف عنها  
شيئا .. وليس من الضرورى أن نعرف .. لانه لاخوف على ذلك ..  
فهى تتعرض لاجراءات أمن دقيقة .. وليس من شأنك أن تعرف ماذا

جرى لها .. فصيانة البلاد من شأن اناس آخرين مدربين وعارفين  
وفى غاية اليقظة .. « بس اركب انت .. اركب ! » ..

سمعتها من ورائى .. وركبت .. وجلست الى جوار النافذة ..  
ولم اعرف من احد كم من الوقت تستغرق هذه الرحلة الى .. الى  
لا اعرف الى أين ؟

اركب ! ركب .. اقعد قعدت .. اسكت ! سكت .. « نام » ..  
لا استطيع .. كل .. اشرب ! .. لا مانع ! العب شطرنج ! ممكن !

وبعد ساعة أو ساعتين .. اضيئت انوار الطائرة .. وجاءت  
صوائى الاكل .. لحم وكافيار .. وخبز وسلطة وزبدة .. ولست  
متأكدا فى هذه اللحظة ان كان الذى قدم لنا الاكل رجلا أو نساء ..  
فالطائرة ضخمة ولا تهتز .. ولا احد يرى أى شيء من النافذة ..  
ولا يسمع أى شيء .. ولا احد يقول لك أى كلام .. والحقيقة انه  
لا ضرورة لاي كلام .. فما الذى يمكن أن يقال لك .. نحن متجهون  
الى القطب الشمالى .. وليلا .. فلا شيء يمكن أن يقال ..

واحسنا بأن الطائرة تهبط .. هكذا دون أن يلفت نظرك احد ..  
ويبدو ان صناعة الطائرات متقدمة فى روسيا جدا .. فهى  
وسيلتها الوحيدة الى الانتقال فى اراضيها الشاسعة ..

ومن النافذة تنظر الى لاشيء .. لاشيء يمكن رؤيته .. انه سواد  
.. أو بياس .. أو الوان رمادية شاسعة واسعة لا اول لها ولا آخر ..  
وهيظت الطائرة .. ومن النافذة لاترى أى شيء .. وان كانت الارض  
بيضاء ثلجية .. وهناك مصابيح تعكس صورة لبيت صغيرة ..  
أو مطار صغير .. أو أى شيء صغير ..

وانفتح باب الطائرة .. ونزلنا .. وكانت درجة الحرارة عشرين  
تحت الصفر .. وهذا الرقم لايمكن أن يكون له أى معنى أو دلالة  
عندك الا اذا ذهبت الى هذه المناطق من العالم .. وخرجت براسى  
وفقدت الاحساس قورا براسى .. ان شيئا ابيض قاطعا قد فصلها  
عنى فى نفس اللحظة التى اخرجتها من باب الطائرة .. ونزلت اترنج  
بلاراس .. فلم اعتد بعد أن اكون مقطوع الرقبة .. ولمحت عند نهاية  
السلم رجلا روسيا عارى الوجه وقف ينتظرنا .. والغريب انه  
يضحك .. ياخير .. هذه أول ضحكة فى منتصف الليل وفى القطب  
الشمالى وتحت الصفر بعشرين درجة .. وقد ذكرتني بضحكة أخرى  
تشرقت بها فى هوليوود عندما قابلت مارلين مونرو .. وهى قطعة من

الثلج المخلوط بالنيبيد وقد انتظرتها ساعات ولم تظهر الا دقيقة  
انقول لى : ازيك يا انت .. وهنا انخفضت درجة حرارتي الى  
عشرين تحت الصفر !

وفي داخل المطار الصغير كان كل شيء دافئا جدا .. من اين اتوا  
بهذا الدفء .. وفي كل مكان لوحات للشطرنج .. ويبدو انها اللعبة  
الوحيدة التي يعصر فيها الانسان نفسه .. ويتأمر على الملك  
بصورة عسكرية صامته ..

وجاءت مديرة الاستراحة وقدمت لنا التاي .. وكان الشاي  
خفيفا . وحاولنا ان نشترى منها شيئا ولكنها اصرت على ان البيع  
بالعملات الصعبة .. وحاولنا عن طريق مترجم ان نقول لها : انا  
ضيوف .. وعابرو سبيل - على الرغم من انه لم يكن هناك سبيل -  
ولكنها اصرت وبشدة ونهايا : بالعملات الصعبة فقط !

وهذا معناه ان هذا المطار مكان سياحي .. !

سياحي وفي القطب الشمالي ؟ يجوز فنحن لسنا رواد القطب  
الشمالي .. ولا رواد الطريق الوحيد بين موسكو وكوبا .. فكوبا  
معزولة تماما عن امريكا اللاتينية . ولا سبيل الى الوصول اليها من  
امريكا التي تبعد عنها ٢٥٠ ميلا الا عن طريق أوروبا .. اى الا عن  
طريق الالف الاميال .. فلا بد ان يكون هذا المطار الصغير الدقيق  
الذي اقيم حديثا مكانا سياحيا هاما !

وقد تصورت ان الحصول على كوب من الشاي بعد ذلك امر  
صعب فشربت كوبا آخر .. وقد اشدت هذه السيدة كل شيء  
لاستقبالنا .. الشاي .. والشاي .. وابتسامة لقاء .. وابتسامة  
وداع .. وعدنا الى الطائرة .. وحدث بالضبط ما حدث لى قبل ذلك  
.. عندما اخرجت رأسي من باب المطار .. طارت رأسي .. ومشيت  
هذه المسافة القصيرة على ارض جليدية نظيفة .. وبعد ان دخلت  
الطائرة .. تلمست رأسي فوجدته في مكانه .. وظل كذلك الى ان  
وصلت كوبا .. واعتقد انه بقي في مكانه .. وان كانت تصرفاتي  
تدل على ان خلا حدث فيه ! ..

في الطائرة وجدنا شيئا تسلى به ..

ففي اوقات منظمة تضاء الطائرة ويقدمون لنا كميات كبيرة من  
الطعام . وكنا نوقف زملاءنا النائمين .. لكى .. يفطروا أو يتغدوا  
.. أو يتعشوا .. نحن لانعرف فالدنيا ليل دائم ..

وفي اللحظة التي نجد امامنا الطعام ننظر من النافذة ، لانجد شيئا  
قد تغير .. فنحن فوق السحاب .. ولا نرى لا شمسا ولا قمرا ..  
ولكن لا بد ان هناك اشياء كثيرة تجرى تحت السحاب لانعرفها ..  
ربما طلعت الشمس .. وتغطت بهذه البطاطين القائمة من السحب  
.. لا احد يعرف ..

وعندما اشرقت الشمس اضيئت الانوار وقيل لنا : طعام العشاء ..  
وسالت مستخدما بعض الكلمات الروسية القليلة التي عرفتھا من  
القاهرة ودرستها في الطائرة فقول انه العشاء .. نعم العشاء  
كما سمعتها . وامسح عيني وانظر من النافذة واشير الى  
قرص الشمس ..

ويكون الجواب : نعم .. ولكنه موعد العشاء في موسكو الان ..

العشاء في موسكو .. وبعد ساعة نتناول الافطار في كوبا ..  
جميلة جدا هذه اللعبة بمقارب الساعة !





وغيرها .. وكوبا هي هذه الدولة الصغيرة التي تتحدى أكبر دولة في العالم وفي قلب أمريكا وعلى مدى ساعة من طائراتها .. ودقائق من صواريخها .. ومع ذلك لا تستطيع أمريكا أن تقضي على حرية الإنسان الصغير في أن يقول : لا .. وان تجعله كلمة «لا» أكبر من أي كبير .. واستطاعت كوبا أن تقول لأمريكا : لا .. ولا تزال تقولها !

وأحسست أنني قريب من الأرض .. فعلا .. هذه أرض .. وليست سحابة ولا ضبابا .. وهذه سيارة واسعة تنقلت .. وهذه أعلام .. وبيوت جميلة .. وشوارع واسعة .. وهذه هي أول أرض رأينا كركلبوس في سنة ١٤٩٢ عندما جاء يكتشف الهند .. ووصف هذه الأرض في مذكراته : بأنها أجمل وأروع لون أخضر رآه في حياته ..

وكوبا جزيرة لها شكل تصاح .. وحول هذا التصاح أكثر من ١٦٠٠ جزيرة أخرى صغيرة .. ومساحتها مائة ألف كيلومتر مربع .. أي أن مساحتها أكبر من كل من النمسا والمجر والدنمرك وسويسرا وبلجيكا .. وبها أكثر من ٢٠٠ نهر صغير ..

وأقرب الدول إليها هي هايتي - على مدى ٧٧ كيلومترا - وحامايكا على مدى ١٤٠ كيلومترا ..

وفلوريدا الأمريكية على مدى ١٨٠ كيلومترا .. ومن فلوريدا هذه تنطلق طائرات ضخمة يرغمها بعض الركاب على الهبوط في كوبا تحت تهديد مسدس صغير .. وهذه هي أشهر الملعب التي يتسلى بها أهل كوبا هذه الأيام !

وعنك لعبة أخرى هي أن هناك سفينة تجسس أمريكية تقف في مواجهة العاصمة هافانا .. خارج المياه الإقليمية .. منذ سنوات .. تلتقط الاشارات الداخلة والخارجة من كوبا .. والرجعيون الكوبيون يفقدون أعصابهم إذا اختفت هذه السفينة .. وكثيرا ما أطلقت شائعات بأنها اختفت فأطلق الناس من النوافذ ليتأكدوا .. وليتأكد الواقفون في الشارع أن هؤلاء رجعيون !

لم أشعر بغرابة في هافانا ..

عند الأرض كأنني رأيتها .. هؤلاء الناس كأنني أعرفهم .. هذه الأشجار .. هذا الزحام .. تمنيت أن أبقى شهرا أو شهرين لو كنت أستطيع ..



## رضدوبن وحوارة !

**بلاذقرب**

من أمريكا اللاتينية نقترب من الدفء والنضوء والألوان والأشجار والحلاوة والمرارة .. وكل الألوان الصارخة في كل شيء ..

والأرض كما تبدو من الطائرة لونها أحمر .. وقد رأيت هذا اللون قبل ذلك في آسيا .. في الهند وفي أندونيسيا والفلبين .. وفي أستراليا أيضا .. وهذه الأشجار الاستوائية أعرفها .. وطعمها على لساني .. وذكرياتها حية في رأسي .. ومجرد رؤية أشجار جوز الهند يحورني من ملابس .. ويردني إلى أصلي .. إنسان بدائي عريان .. أو إنسان قريب الشبه من القرد .. أو قرد .. فقد تسلقت هذه الأشجار في جزر هاواي .. وتمت عليها .. وكدت أغرق عندما كبس على النوم .. وتوهمت أنني على سرير ففردت ذراعي ومددت ساقي .. وغريزة البقاء وحدها هي التي جعلت يدي على النخلة المنحنية على سطح ماء المحيط الهادئ .. ولو سقطت في الماء لفرقت .. لاني لا أعرف السباحة .. وقيل لي بعد ذلك أن الماء يبلغ المترين .. وأنه لولا ستر ربنا .. لكننت وكنت .. فالحمد لله على الستر ! ..

وهذه الرطوبة الشديدة في مطار كوبا أعرفها .. أحسستها على قفائي في جاكرتا .. حيث الرطوبة تصل إلى ٨٠٪ وأحيانا إلى ١٠٠٪ .. وقد التصقت ملابس من الرطوبة .. ولكن هنا يوجد دفء .. وتوجد حرارة وحياة .. وهنا ناس .. سمر .. بيض .. رجال ونساء .. وينظرون ويتفرجون .. وهنا أعلام .. ونحن هنا عرسان .. وهذه زفة سياسية .. هنا ينعقد « مؤتمر القارات الثلاث » لادانة الاستعمار الأمريكي الذي يريد أن يخنق كوبا .. وأن يبتلع بلادنا ومنطقتنا كلها .. وفي تمام .. وغيرها

وكان مقرنا هو فندق هيلتون الذي تغير اسمه وأصبح « هافانا الحرة » - أي هافانا الحرة .. والغاء ينطقونها هنا بآء ..

هذه أول مرة أنزل في فندق هيلتون في أي مكان في العالم .. والفندق كان مقفلا وفتحته الكوبيون لاستيعاب هذا العدد الهائل من أعضاء الوفود القادمة من انقارات الثلاث : آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية .. وهناك فندق آخر فخم جدا قد أعد لاستقبال بقية الأعضاء الوفود ..

ومن أول لحظة تحس أن كل شيء في هافانا قد أعد للحفارة السخية بأعضاء الوفود .. ففي استطاعتك أن تدخل أي مكان .. أي محل .. أي مسرح .. أي سينما .. كل شيء قد أعد لك ويعرفك وينتظرك .. وكل الناس الذين حولك شيان .. لأن كوبا شابة .. ورئيسها كاسترو شاب أيضا .. وأخوه شاب .. وجيفارا زميله في الكفاح شاب .. كان شبابا .. والذين تراهم من الشبان والشابات تلاميذ في مدارس أو جامعات .. أو موظفون صفار .. كلهم جاءوا لخدموك .. كل ما تريد .. حتى الفندق تستطيع أن تصحح حذاءك وتحلق شعرك على حساب الدولة ..

وكل شيء منظم ودقيق .. المطبوعات والمنشورات والصور .. حتى عندما جلست مع الأديب الإيطالي البرتو مورافيا وزوجته الأديبة دانشيا مارياتي وطلبت التقاط عدد من الصور لنا .. أخذت الصور وطبعت وأرسلت وبسرعة ومع السكر الجزيل لك .. وعندما ذهبت إلى البيت الذي كان يسكنه الأديب الأمريكي همنجواي رافنسي أحد المصورين .. والتقطت ما أردت من الصور .. وطبعها وقدمها لي .. في غاية الدقة والرقّة والسرعة ..

وإذا كانت هناك ملاحظات سريعة على مدينة هافانا فهي أن المدينة نظيفة جدا .. والمحلات نظيفة .. والبيوت والفلل والقصور والمرافق في غاية الجمال .. كل هذه البيوت كان يملكها ويسكنها الأمريكيان .. أن هافانا كانت مدينة اللذات .. فكل أمريكي غني له شقة .. أو قصر .. وليس أسهل من أن يركب طائرته ومعه صديقة أو يتجه إلى صديقة .. ويختفي ساعتين أو ثلاثا في هافانا ثم يعود إلى مكتبه في أمريكا ..

هكذا عاشت هافانا « جرسونيرة » لأمريكا .. ويمكن أن يقال كل كوبا ..

فكوبا التي تباع السكر كأنها مصابة بمرض السكر .. فهي لا تدقه .. محرم عليها .. فالأمريكان يزرعونها ويقلمونها ويقطعونها ويصنعونها ويصدرونها بالأسعار التي تعجبهم والشعب الكوبي يتفرج على العلم الحديث الذي يحول القصب إلى سكر يدقه كل الناس إلا الذين زرعوه !

والدخان يصنعه الأمريكيان ويبيعونه في كل عواصم الدنيا .. والبن .. والإناناس .. وجوز الهند .. كل شيء تحتكره أمريكا .. والشعب متهدم متململ .. والخونة على رؤوس الحكومات يساومون ويبيعون البلاد .. كل هذه الملايين السبعة لا تملك من أمر بلادها شيئا ..

وظلت كوبا حتى أول يناير سنة ١٩٥٩ مزرعة أمريكية ..

أما ثورة كاسترو فهي التي أطاحت بالرجعية والاقطاع وبالنفوذ الأمريكي في كوبا .. ولا يزال يهددها .. وبعد ذلك مؤتمر انفارات الثلاث ليس إلا اتفاقا دوليا على تصدير الثورات إلى الخارج .. وما كان يفعله الزعيم جيفارا ليس إلا محاولة لتشجيع الثورات الداخلية على أن يكون لها دور .. وإذا كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد اغتالت جيفارا وتحاول أن تقتال كاسترو ، فإن كوبا ما تزال نموذجاً رائعا لصلابة الضعيف صاحب المبدأ في مواجهة القوى العاشم !

وكل شيء حلو في كوبا .. فهي بلاد السكر .. حتى القهوة لا يشربونها سادة ولا سكر شوية .. انهم يخلطون البن بالسكر .. ومن ضمن المشاكل الصغيرة كل يوم أن اطلب فنجان قهوة سادة .. هذا غير ممكن ! وقد اعتدت أن أشربها سكر زيادة .. والإناناس هنا أجمل من أناناس كثير من البلاد الآسيوية .. وهنا البابايا التي تشبه الشمام وهي لذيذة الطعم .. والفواكه كثيرة سواء على مائدة الطعام أو في السلال الأنيقة التي يضعونها كل يوم في الغرفة .. وهنا يشربون نوعا من « الروم » اسمه الباكاردى .. ويقال أنه أحسن أنواع الخمور في العالم ..

والذي عرفناه بعد ذلك يؤكد لنا مدى التضحية الهائلة التي بذنها الشعب الكوبي من أجل نجاح هذا المؤتمر .. فالشعب لا يجد كل هذا الطعام الذي تجده .. انه يضحي به من أجلنا .. ولا كل

هذا الارز انه يعطينا ما زاد عن حاجته .. ولا كل هذه المسجائر ..  
والسيجارات ولا علب الكبريت المصنوعة في المكسيك .. ولا  
زجاجات الكوكا المصنوعة في اسبانيا .. ولا الولاعات الصغيرة  
المصنوعة في اليابان .. ولا هذه الحقائب الجلدية المصنوعة في  
أوريا .. ان الشعب الكوبي شعب مثالي .. اراد ان يضرب احسن  
الامثلة لاسمى المبادئ : مبادئ حق تقرير الشعوب لمصيرها !

ولم تخف الصحف الكوبية ذلك . فقد قرأت ان ولايات كوبية  
تعلن - بكل سعادة - تنازلها عن نصيبها من الارز لاعضاء الوفود  
- منتهى الايثار والتضحية ! - .

وفي مايو سنة ١٩٦١ اعلن كاسترو موقفه بوضوح وشجاعة  
وبصورة قاطعة : انه ماركسي ليني . . وانه وشعبه سيتحملان نتيجة  
هذا القرار . وكان من نتيجة هذا القرار سياسة التجويع .  
التي فرضتها امريكا عليه . . والحصار الاقتصادي والسياسي  
والعسكري على الجزيرة الكوبية . .

وفي اكتوبر من العام التالي التقطت الطائرات الامريكية صورا  
لصواريخ سوفيتية في كوبا . . واعلن الرئيس جون كيندي فرض  
الحصار على كوبا والتفتيش الجوى لكل السفن الداخلة والخارجة  
منها . . ومنع دخول اى سلاح الى كوبا . . وكانت ازمة عالمية ادت  
الى ان يسحب خروتشيف الصواريخ من كوبا . . وكان شجاعة من  
كيندي ان يهدد . . وكانت حكمة من خروتشيف ان يسحب . .  
ولم تقع حرب عالمية ثالثة . .

ولا داعي لان يكون هناك كل هذه الاسلحة في كوبا . . فامريكا  
لا تستطيع ان تهاجمها وان تغزوها رغم محاولاتها الكثيرة ، فامريكا  
لها مواقع حساسة . . او اكثر حساسية وكلها واقعة تحت رحمة  
السوفيت في أوروبا . . وفي آسيا . . وفي البحر الابيض . . ولا يمكن  
ان تغامر امريكا بغزو كوبا دون ان تتعرض لمواقف اكثر حرجا في  
اماكن اخرى من العالم . .

واحساس الكوبيين بانهم امريكان لاتين يجعلهم يكرهون انهم  
امريكان . . وكلمة امريكي اهانة لا تغتفر . . واغانيم الصغيرة  
الحماسية تردد ذلك . . وتتوسع بذلك . . فهناك اغنية تقول :  
فيديل . . فيديل . . اكيد سوف يعطيهم علة . .

فيديل - اى فيديل كاسترو . . واى مواطن يساوى كاسترو  
باسم الصغير - اى سوف يعطى الامريكان علة . . وقد اعطاهم  
علة لانظير لها في التاريخ . . انه الصغير الذي وضع انف الكبير في  
الطين . . وجعله عاجزا عن الانتقام . . وكوبا في امريكا تشبه اليابان  
في أوروبا . . واسرائيل في الشرق الاوسط انها جميعا ركائز قوية  
لروسيا والصين وامريكا . .

واذا كان الروس يرفضون التوبست . ويجدون في ذلك نوعا من  
المرونة ونوسيع الافق او نوعا من الاعتداف بعالمية الفن ، فان  
الكوبيين لا يرفضون التوبست . . وانما يرفضون رقصة مشابهة لها  
تماما اسمها « الموزمبيق » وهذه الرقصة تد ابتدع خطواتها كوبي  
رجي اسمه بايلو الافريقي . . والكوبيون من افدر الشعوب  
الامريكية على الرقص . . ومن اجمل المتع في الدنيا ان تنفرج عليهم  
وهم يرقصون رجالا ونساء . . ان الموسيقى هي دمهم . . والرقص  
هو نشاطهم اليومي . . حتى كاسترو . . فنحن عندما ذهبنا نوقد  
شمعة الضامن الاسيوي الافريقي . وكان ذلك ليلا . . وكان الجو  
باردا في قمة احد الجبال . . وكان المطر يتزل علينا . . تماسكت  
الابدى ورحنا نغنى الاناشيد الكوبية الحماسية البسطة . .  
ويرقص رفبه الموزمبيق . . كل النسيان والرجال . . وكاسترو . .  
مدودا من دراعيه الانثين . . يرفص . . ويغنى . . ويظل في نفس  
اللوب رنما وشبابا نائرا . . اذا حطب اهزت له الملايين . . وهو  
لا يخطب الا اربع ساعات واحيانا سبع ساعات ويستقبلونه بالتصفيق  
وتوقا . . وكنا نسمع الى خطبه من راديوها تترجم كلماته الى  
ثلاث لغات من بينها اللغة العربية .

وكاسترو رجل بسيط . . في مظهره . . انه يرندى الملابس  
المسكرة الخشنة . . والحذاء الخشن . . ويحمل سلاحه . . ولا  
يكف عن تدخين السجائر الكبير . . وهو ككل لاتين يحب الخمر . .  
ويدعو اليها كل صديق . . واى انسان هو صديق له وبسرعة . .  
ومن الطبيعي ان تكون معبودا للشباب . . وهو ايضا يحب الشباب  
ان يلف حوله . . ولا عدد للفتيات الصغيرات اللاتي يدورن في فلك  
كاسترو . . وهو رجل اعزب بعد ان هجرته زوجته الى امريكا مع  
عشق امريكي . . ومن المؤكد ان هذه الاهانة التي لعنته شخصيا  
اعمق اثرا من انتصاره الهائل على امريكا . . انه انتصر على امريكا  
هذا واضح . . ولكن انتصار شخص امريكي واحمد عليه قد  
اوجعه اكثر . !

وقد هربت أخته أيضا الى أمريكا .. انها لا تريد ما يريد .. ولا يهتما ما يهمة .. انه قائد وهي فتاة عادية .. هو رجل غير عادي .. رجل يصنع التاريخ لبلاده وللقارة اللاتينية ، وهي فتاة تريد ان تعيش بلا تاريخ ولا لقب .. ومهما ذهبت وفعلت فلا وزن لها الا لانها أخت كاسترو ..

والكوبيون هنا خليط من الاسبان ومن الزنوج الافريقيين الذين اتى بهم الاسبان والهولنديون والبرتغاليون رقيقا يزرع الارض .. واختلط البيض بالسود .. ولذلك نجد في كوبا اناسا بيضا وسمررا وزنوجا .. ولا توجد اية تفرقة لونية عندهم .. والتزاوج ممكن بين هذه الالوان .. او يحاولون ان يجعلوه ممكنا الى اقصى حد ..

وعندما كنا نذهب الى بيوت الزنوج الفقراء .. وناقشهم وهم يتفرجون علينا فنقول لهم : نحن افريقيون ..

كانت ملامحهم ترفض ذلك .. فهم سود ونحن بيض .. فالافريقي عندهم هو الزنجي .. هوسجين اللون .. امانحن فافريقيون جغرافيا فقط .. وكنا نقدرهم .. فلا تزال حجتهم اقوى .. هم افريقيون حقيقة .. ونحن متفضلون عليهم بهذه الصفة الافريقية .. ولا يمكن ان يسمر الابيض بعذاب الأسود الذي يزرع نحت فك بارزو وشعر مجعد وبشرة في لون الظلام وقضبان السجون !

ولا اعتقد اني رايت في حياتي يوما اجمل ولا ارووع ولا ايسط من يوم الثورة الكوبية .. كان ذلك يوم راس السنة .. ونحن نجلس على منصة أو شرفة عالية في ميدان كبير .. الانوار والموسيقى .. والموائد مملودة .. وعلى الموائد كل طعام وكل شراب وكل أنواع السجائر وعلى مدى منضدين منا يجلس كاسترو .. وبعينه الضيقة ذات الاحمرار الحقيقي لمح الزجاجات الموجودة على الموائد المجاورة وطلب تغييرها الى شمبانيا .. وشرب في صحة كل الشعوب .. والتضامن والشعب الكوبي .. اما الشعب الكوبي فقد افترش الميدان .. ففي الميدان موائد ومقاعد .. وطعام وزجاجات البيرة لاعدد لها .. وسندوتشات اللحوم .. والفاكهة .. مئات الالوف من الناس .. يأكلون ويضحكون .. واهم من ذلك برقصون ..

لقد رايت عيد الثورة الفرنسية في باريس مرتين .. ومثيت في الشوارع ازاحم الناس .. ودخلت الى المقاهي ازاحم الناس .. واتجهت الى الميادين افسح لي مكانا .. وضحكت .. ورقصت ..

وملات نفسي بسعادة الفرحة بالحريه .. وتفاديت ان ادوس السكاري على الارض .. وحرصت على الا ألقى بنفسي بين اثنين يتعانقان .. والا ادق بابا غير بابي وان اضع المخدات فوق رأسي عندما اعود الى فراشي حتى اخطف ساعة من النوم وسط الترخات والقبلات والعبارات المخمورة في الغرف المجاورة وعلى السلالم وفي الاسانسير .. وتصورت يوم كنت في باريس انه ليس روع من ١٤ يوليو في باريس .. ولكن في هانانا كان ارووع وابسط واجمل .. انت مع كل الناس .. لا أحد يعرفك ولا انت تعرف احدا .. ولكن مد يدك الى اي انسان تعود يده معك .. مد ذراعك ويمتلىء حضنك .. بلل شفطيك والقبلات نظير من كل مكان .. انت واحد من مليون .. والفرحة تنوزع بالعدل بين الناس ..

وليلة اخرى في مدينة سان فوييجو في مقاطعة اورينت في كوبا ايضا .. في تلك الليلة اقيمت المهرجانات الموسيقية والغنائية .. يمكنك ان تقول ان الكوبيين ولدوا ليرقصوا .. او يرقصون منذ ولدوا .. انهم في غاية الرشاقة والسيولة والليونة .. هذه هي رقصة الموزمبيق .. لم اتعلمها من احد .. ولكن المترجم الذي اسمه : جورجه - اي جورج فهم ينطفون الجيم ماء - بهز في مكانه وبسهولة وفي جمال .. سحبنى .. انسحبت .. هزنى اهتززت تركنى كلعبة لها زميلك وظللت ارقص حتى نهنى الى ان الرقصه تغيرت وانه من الضروري ان اغير .. تماما كاني اسطوانة انتهت ويجب ادارتها على الوجه الآخر .. واهتز امامي واهتزت امامه .. وتدخل بيننا عدد من الفتيات .. وليس من الضروري ان ترقص اذا كانت التي تقف امامك او ورائك فتاة .. دعها هي ترقص وتظاهر انت بالاعجاب بها والفرجة عليها .. وسوف يعذرك الناس لان هذه اعظم تحية واكبر عذر يقبله اللاتين هنا .. ان تعجب بفتاة .. وان تذهب في اعجابك بها الى الخروج على التقاليد وعلى الذوق ! فمن مئات السنين فعل امير العشاق ذلك .. فدون جوان القى على نفسه جردلا من الماء القذر لكي يضحك معشوقته .. ولما ضحكت .. رفض أن يغسل وجهه .. ولم يعتذر عن هذا الماء الذي اصاب في نفس الوقت والديها .. انه مشغول بها فقط .. وهذه اعظم تحية !

والاديب العاسقي كازانوفا عندما ذهب الى لقاء محبوبته في بيتها وجدها مريضة .. ولما سألها عن السبب قالت : اكلت طعاما قاسدا ..

فانطلق الى المطبخ يبحث عن الطعام الفاسد .. ايموفه وبمرضى  
التي جوارها .. ونه يجد الطعام .. فامتنع عن الطعام حتى مرض .  
وجاءت لزيارته .. ولم يكذب يراها حتى ففز من سريره دفعة واحدة  
وكانه عنفريت خرج من فمهم .. وانها على يديها يقبلها .. وعندما  
نظر الى الارض ليعرف ما هذا الشيء الذي يلعب .. لم ينتبه الى أن  
هذا الذي سحقه بقدمه كان منظار الطبيب الذي سقط على الارض  
وزجاجات الدواء في يديه والمنظار تحت أقدام الجميع .. ولم يعتذر  
كأناثوف .. فأمام المتسوفة لا عذر ولا اعتذار .. ولكن ان نكون  
هناك ليصبح كل شيء جائرا ..

وتصورت في لحظة انى انفسك وان الافكار التي تنوارد على  
راسي هي انطلاقات شاعرية .. ولكن عندما نظرت الى جوارى  
وجدت عجوزا بساق واحدة .. وقد اصرت على ان ترقص ..  
واختارت شايًا صغيرا .. وكانت اروغ واسرع منه في الرقص ..  
ولما انهضنا لذلك .. قالت العجوز : انى قد تصلبت وبيست في  
اماكن كثيرة من نفسى وجسمى .. وله ببق لى الا الرقص .. !

وسألتنى : هل ترقص !

قلت : ليشنى أستطيع .. ان الرقص معك يؤكد عجزى الذى  
لا حدود له ..

قالت : الشاب هو الذى يرقص .. عندما كنت شابة كنت ارقص  
طول الليل .. وقد استطعت في ليلة ان ادوخ عشرة من النمان ..  
هم تعبوا وأنا لم اتعب ..

قلت : وتستطيعين الليلة ايضا :

وضحكت .. وكانت ضحكتها سعيدة .. وسعادتها ندر على ان  
المرأة لاتشبع من المديح ..

وقال لى أحد خبراء الرقص الكوبيين .. انه ليس من الضرورى  
ان نكون اسنادا في الرقص .. المهم ان تتحرك فقط .. اعط اذنك  
للموسيقى .. والصوت يقوم بكل العمل في جسمك ..

وأدرت هذه العبارة في أذنى على كل الاشكال الادبية والسياسية  
والموسيقية : اعط اذنك .. واترك الصوت يقوم بكل العمل !

واعطيت اذنى للموسيقى الصارخة .. والطبوسول المدوية ..  
واعطيت عينى للالوان .. امواج من الالوان .. واعطيت انفى ..  
لا اظن اننى اعطيت انفى .. فقد فقدته تماما .. فأنا مصصاب  
بزكام شديد .. واعطيت ذراعى واصابعى لكل ماحولى .. فأنا احرك  
المقاعد واتساند على الحواجز الخشبية .. واعطيت فمى لكل الفواكه  
.. فأنا ميدول لكل هذه الفيضانات من المتاعر .. انها تهزنى ..  
وتهدئنى .. وتفلسنى وتعصرنى وتشرئبى وتجفنى لتكون نفسى  
أكثر بياضا ..

لقد تركت الاصوات والالوان تقوم بكل العمل ..

وعرفت النوم العميق .. واليقظة النظيفة ..

وسألت احدى المرافقات لنا : انت مخطوبة

فقلت : نعم .

قلت : لمن ؟

قالت : لموظف في وزارة الداخلية ..

قلت : ومتى تتزوجين ؟

قالت : قريبا

قلت : هل هناك صعوبات ؟

قالت : يعنى .

قلت : افهم معنى كلمة يعنى هذه .. لانها من الكلمات القليلة التي  
تضابقتى .. لان معناها ان هناك صعوبات ولا داعى لذكرها .. أو  
لاداعى لان تعرفها .. أو ماشأنك انت يا بارد ..

قالت : كل هذا الذى قلت ..

قلت : تقصدين انه لاداعى لان اسالك .

قالت : لا .. اسأل .. وأنا من الواجب ان اجيب ..

ولم اسأل طبعاً .. فقد سدت فمى عبارة «من الواجب ان اجيب»  
— احسنت فجاء انها موظفة تقوم بمهمة .. وانها مطالبة بان تكون  
لطيفة وظريفة .. والا تدلى بكثير من المعلومات .. أو بعض المعلومات  
فكوبا دولة حساسة .. وتتوقع ان يكون أى انسان عدوا لها .. مع أن  
الذى كنت أريد ان اعرفه هو بعض العلاقات الاجتماعية والعائلية  
وكيف تغيرت .. وكيف أقابل بعض المسؤولين عن تطوير الأسرة ..

وكيف انتقلت كوبا من الانحلال الى التحرر .. او كيف انتقلت من التحرر الامريكى الى التحرر الكوبى ايضا . . . وابن ذهبت هذه الالوف من بنات الليل .. وما الذى يفعله الكوبيون أنفسهم فى هذه الكباريات الكثيرة جدا الموجودة فى هافانا واريد ان اعرف منها متى بدأت تجربة الفتيات اللاتى يقمن بتنظيم المرور فى الشوارع .. انها كانت واحدة منهن .. ولكن لما سمعتها تقول : « انه من الواجب ان تجيب .. » احساست ان هذه الاسئلة الشخصية فوق الواجب ، وانها اذا كانت قد راعت الذوق فى كل تصرفاتها ، فلماذا لا افعل ذلك ؟ وفعلت ذلك وسكت ..

واتجهت الى بائعة سجائر .. وما اكثر السجائر وعلب الكبريت هنا .. ان اكثر اعضاء الوفود الذين غيروا عملاتهم فى السوق السوداء قد عادوا بالوف من علب السجائر الفخمة وعلب كبريت الشمع .. وسألتها :

- طبعاً من أصل اسبانى ؟

فقلت : هه - اى نعم - وانت ؟؟

قلت : مصرى .. افريقى ..

قلت : هه - ومعناها : ياه

قلت : لا تصدقين ؟

قلت : هه - ومعناها : العب غيرها !

قلت : احلف لك ..

قلت : هه - ومعناها : على ماما ؟

قلت : اريد كتابا فى اللغة الاسبانية ..

قلت : هه ( مع هزة من كنفها ناحية اليسار .. الذى تصادف انه ناحية الباب الخارجى ولم يكن قصدها ان اخرج بسرعة ) - ومعناها : لا يوجد

وذهبت الى المترجمة ورويت لها ما حدث .. وسالته عن الفتاة وعن اوصافها .. ولما عرفت ضحكت جدا وقالت : انها ملكة جمال هافانا .. وهى تتصور انها اجمل واحدة فى كوبا وفى امريكا .. وان اى انسان يتحدث اليها فهو يعاكسها فقط .. وان كلمة « هه » من أهم الكلمات التى تستخدمها وهى معروفة بذلك ويسمونها هنا سينوريتا « هه » ؟ ! ..

وسالته : ما الذى كنت تريد منها ؟  
قلت : كتابا فى تعلم الاسبانية ..  
قلت : هه .. - ولم اعرف معنى هذه الكلمة ..  
قلت : ماذا تقصدين ؟  
قلت : هه - اى هذه حيلة .

قلت : والله ابدا حتى اسألى فلانا واشرت الى احد زملاء ..

وضحكنا .. واندمنت جدا كيف اتنى وحدى الذى كنت ابحت عن كتاب وكل هؤلاء الخبثاء قد عرفوا بسرنة انها ملكة جمال وذهبوا يداعبونها ..

وقلت للمترجمة : ولكنى لا اراها جميلة ..

قلت : هه ومعناها : اطلع من دول ..

قلت : اقسم لك انها ليست جميلة .

قلت : اسمع !

وسمعت منها ما ليس عربيا على عقلى .. فمن المألوف ان يذهب الناس فى معاكسة الفتاة الجميلة فيهاجمونها ويغيطونها ويؤكدون لها انها لاجميلة ولا حاجة .. وهى محاولة لهز ثمار الشجرة .. او لزراعة ايمانها بنفسها .. فقد تحب المرأة من يكرهها .. او من يعذبها او من يحتقرها .. او من يزهد فيها .. او تطارد من يهرب منها .. تماما كما تهرب ممن يطاردها ..

ولم يكن هناك مجال لكلام .. فانا زائر عابر وانا عندى ما يشغلنى وهو كثير .. وانا عضو فى اكثر من لجنة .. وعندنا تقارير وكتب .. وعندنا لقاءات مع ادباء واساتذة جامعة .. واعضاء الوفود .. وعندى موعد آخر مع البرتو مورافيا .. الذى تتأكد صداقتى له فى كل مرة ألتقى به .. فى ايطاليا وفى القاهرة وفى المانيا .. وهنا فى كوبا ..

سالته : ما رايك فى كوبا ؟

قال : تجربه رائعة ..

قلت : هل تكتب عنها ؟ ..

قال : اعتقد ذلك ..

قلت : كتب عنها سارتر وسيمون دي بوفوار ؟

قال : انه يكتب كثيرا ..

قلت : وفرانسواز ساجان ايضا ؟

قال : واعجبك ما كتبه .

قلت : لم يعجبني من كل ماكتبته غير كتابها الاول : مرحبا

أيها الحزن ..

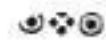
قال : وانت ايضا رايت فيها هكذا .. ان زوجتي من رايتك ..

اسألها ..

قلت لها : لم يعجبك من مؤلفات ساجان سوى قصتها الاولى ..

قالت : نصف هذه القصة .. وهي لم تضيف جديدا لا في النصف

الثاني .. ولا في بقية القصص الاخرى ..



ولم يخل مؤتمر القارات الثلاث الذي كان مرهقا للاعصاب لمناقشاته الطويلة وخلافاته الحادة حول الزنامة وعلى مكان مركزه الدائم .. وموقف الوفد الصيني .. والوفد السوفيتي .. والوقود الافريقية .. ففي داخل اللجان كانت الترجمة فورية والى لغات اوروبية متعددة .. والى اللغة العربية ايضا .. فمثلا امر مندوب اليمن ان يلقي قصيدة طويلة .. وهذا الشاعر ابيض الوجه اخضر العينين قصير القامة .. وذهب الى المنصة واخرج شريطا طويلا من الورق وراح يلقي قصيدته .. وامسك الحاضرون السماعات التي يستمعون منها الى الترجمة .. وراحوا يحركونها يمينا وشمالا ويتلفتون حولهم .. واشتركوا في ابتسامة غامضة .. ثم في ضحكة عالية .. وراحوا يسألوننا عن هذا الذي يجري امامهم ولا يفهمونه . ونحن لانجد مانقوله ؟ انه يلقي قصيدة .. ولا يمكن ترجمتها الى اية لغة .. لانها كلام فارغ اولا .. ولانها تتلاعب بالالفاظ .. ومن اهم العابها اللفظية كلمة : كوبا .. فالقصيدة تقول : جئنا الى كوبا .. ولم نشرب كوبا من الماء ، وانما شربنا

اكوابا من الكرم والضيافة .. الى آخر مثل هذا الكلام البايخ الذي لا يمكن ترجمته ولا داعي لذلك !

ولكن الناس يريدون ان يعرفوا .. ولم يعرفوا لان احدا لم يقل لهم شيئا .. وكل ما قيل لهم : انه من اليمن ..

آه من اليمن .. آه كده .. وترددت مثل هذه الكلمات وكانت ردا .. او مبررا لعدم الرد !

وكان الوفد الصيني عصيبا جدا .. وكان عدده كبيرا .. ولم افهم في كل ماقررات او سمعت سببا لهذه العصبية .. ربما كان السبب هو ان الصينيين اذا راوا الروس احترقت أعصابهم .. وكان الروس هناك دائما وفي منتهى النشاط ..

واذكر - مرة واحدة - انني لقيت احد اعضاء الوفد الصيني وحييته او حيائي ولم نقل شيئا . وضحك هو ولم يقل شيئا .. وعاتبني احد الزملاء : كيف تفعل ذلك .

قلت : وماذا فعلت ؟

قال : الم تسمع ما الذي قاله هذا الرجل في جلسة الصباح .

قلت : لم اسمع ..

قال : لقد لعن المؤتمر من اوله لآخره ..

قلت : اننى لا اراه قد لعنتى بصفة خاصة .. ومع ذلك فما الذي

قلته له .. او قاله لى .. لقد حيائي في صمت .. وحييته في صمت

اكثر .. هو ضحك وهز رأسه .. وانا لاضحكت ولا هزرت رأسي

قال : لكن كان عندك استعداد انك تكلمه ..

قلت : ولا يزال عندي استعداد لان اتكلم مع اى احد من كل الذين

تراهم امامك ..

قال : يا عم انا ماليش دعوة .

قلت : هه - محاولا ان اقلد الفتاة الكويتية بائعة السجائر ..

هه .. وانصرفنا .. كل الى حال سبيله .. ولم يكن لنا سبيل

الا حول الفندق وفي المحلات الصينية التي تباع الاحجار الكريمة

وبأسعار معتدلة .. خصوصا حجر التراكواز وحجر الجباد

الغالي الثمن ..

وقلت انا : واذا لم يبعث كاسترو ..

وقلت انت : يبعث لك كاسترو بأن تجيء لتسخدم هذا  
السيجار معه ..

قلت انا : هذا افضل ..

ومددت يديك وصافحتني .. وكانت هذه المصافحة تعاقدا  
واتفاقا بيننا ..

والآن يا ايها العزيز فيديل : انا في شوق الى سيجارتك ..  
فما رأيك ؟ ..

ومزقت الخطاب لان المعنى لا يعجبني .. ولا يريحني .. ويكفي  
انني رايت وسمعت وقرات واستمتعت واحتفظت بذكرات جميلة  
حارة : لبلاد جميلة وشعب حار .. وليس السيجار وقصب السكر  
والاناناس الا اهنون ما فيها ..



وانتهت بسرعة خاطفة الرحلة الى كوبا .. من الغرب الى الشرق  
.. وفي الناس تلك الصورة الجميلة العميقة .. وفي الفم طعم جوز  
الهند الذي شربناه .. والاناناس الذي التهمناه .. والسيجار التي  
تعلمت من كاسترو ان تضعها في فمجان القيوة الى ان يلين احد طرفيها  
ثم تكسره باسناننا .. وقد امتلأت الحقايب بالكتب والمجلات وعلب  
الكبريت وعلب السجائر وبالعود والخواتم الصينية والقمشة الحريرية  
.. ولا اظن انني رايت القبايب في كوبا .. ولكن وجدت ستة ازواج  
منها في حقيبة صديق سعودي كان ضمن المؤتمر .. ربما كانت هذه  
اول صورة للاحادية التي ليسها الاسبان عندما اكتشفوا كوبا .. بعد  
ان اهتدى اليها البحار الايطالي كولبوس .. ولم استرح لوجود هذه  
القبايب في الطائرة الا عندما تركها الزميل السعودي في غرفته في  
فندق اوكرانيا بموسكو ونحن في طريق العودة الى القاهرة ..

وفي غرفتي في فندق اوكرانيا امسكت قلما وورقة وكتبت :  
« عزيزي الرئيس كاسترو » ..

انها بداية تقليدية سخيفة ..

افضل منيا : عزيزي فيديل كاسترو ..

او لاداعي لكلمة كاسترو هذه .. انهم ينادونه بكلمة فيديل ..

اذن اقول : عزيزي فيديل .. تذكر يوم راس السنة يوم عيد  
ثورتك الشابة المجيدة ونحن نأكل معا .. ونسبح الكثير من سعادتك  
ونحن نتحدث عن كوبا. هل تذكر انك قدمت لي سيجارا كبيرا جدا  
.. اكبر من سيجار تشرشل .. انه سيجار كاسترو .. والقيت بما  
معي من سيجار في الارض - احتقارا لشأنها .. وقلت لي بالحرف  
الواحد : مادمت مع كاسترو فاشرب هذا السيجار ..

واعطيتني سيجارا ضخما .

وقلت لك : واذا لم اكن مع كاسترو ..

فقلت انت : يبعث لك كاسترو بالسيجار ..



## فهرس الكتاب

ص

٢

• الى اى مكان

### • الكرنفو بلا لوموبا

١٢

• ونفرت الى السرى

٢٣

• اى خلعة با ولدى

٤٣

• اهلا امين باسا

### • صنع فى المانيا

٥٨

• اكر غلطة لغوية

٦٦

• صنعت فى أمريكا : الجليظة

### • ايطاليا للمرة العشرين

٧٤

• موفيا واخوانها

٨٧

• ظبانى بين الصعابدة

### • اكر من سوبرا

٩٨

• بعز ايه : خوف

١٠٦

• هذه النقطة الجاهلة

### • من الكافيار الى الاناس وبالعكس

١١٦

• كثر الملك دائما

١٢٦

• رقص وين وثورة